الطبعة 3

محمد علي

رواية

# إني سميتها مريم

أمّا بعد.. فليس بعدكِ بعد

تشكيل للنشر والتوزيع

# إني سميتها مريم

/ رواية
I.S.B.N: 978- 977–85224-8-8
رقم الإيداع: ٣٤٣٣/ ٢٠١٦
الطبعة الأولى: ٢٠١٦
تأليف: محمد على
تصميم الغلاف: أحمد فرج
تدقيق لغوي: أحمد المنزلاوى
الناشر: حدوته للنشر والتوزيع
توزيع: تشكيل للنشر والتوزيع
المدير العام: سيد شعبان
دار تشكيل للنشر والتوزيع
Email:publish@tashkeel- publishing.com
Mobile: ٠١١٤٩٤٨٠٨٢٧





# إني سميتها مريم

رواية

محمد على

والدي العزيز ..

أراك في كل ما أرى ..

عليك سلام الله ورحمته ..

سأصل للنهاية حتماً . . سأصل لها وحدي

## "ديسمبر لا يعرف الرحمة"

خطت يداه تلك الكلمات مستجيبًا للبرودة التي تجتاح كل ذرة في جسده النحيل؛ فرغم ما تحويه ليالي ديسمبر من قسوة فقد كان يعشق الخضوع لتلك الرسل المبعوثة من قبل الذكريات والماضي اللذين قد بنيا مستعمرات في قلبه ووجدانه. لم يكن هناك شيء يستطيع أن يمنعه من الكتابة في حضرة هذه البرودة سوى المطر، وحدث ما خشي؛ وعانقت السحب بعضها بعضاً وسقط الغيث. أغمض عينيه ليستمتع بصوت شجار المطر مع زجاج النوافذ، ولحسن حظه أنه في تلك اللحظة قد علا صوت الموسيقى بتلك النغمات التي تذيبه وتلهمه جميع ما يكتب.

تمنى كثيراً أن يقابل "yanni" حتى يخبره أنه يدين له بكل ما كتب من قصائد وروايات وود أن يخبره أيضًا بأن المقطوعة الموسيقية التي سماها "until the last moment" ما هي إلا مزيجًا من أصوات تغريد بلابل وعصافير الفردوس العليا.

نزع سماعات الأذن ووضعها على المنضدة وتركها لتجاور القلم والأوراق وحافظة نقوده وما بها من أوراق لا يعلم ما فيها سواه، وهاتفه المحمول، وما تبقى من قهوته التركية، وعددًا ما يكفي من نيكوتين يعطيه سببًا واضحًا ليظل يومًا أخر على قيد تلك الحياة.

سار بخطوات ثقيلة حتى داعب النوافذ بزفيره البارد الذي ما لبث إلا ثوانٍ وتحول لقطرات ماء تعكس قطرات المطر على الناحية الأخرى. تلك الأجواء المفضلة لديه، كم يعشق الشتاء وكم يكرهه أيضًا ! . كم من الذكريات قد مرت أمام عينيه في تلك اللحظات وتركت له تلك الابتسامة التي تعانق شفتيه الآن.

تصاعدت نغمات هاتفه المحمول فاصطدمت بقطار ذكرياته فأوقفته. اتجه إلى الهاتف الذي يتصاعد منه صوت منير مغنيًا "شيء من بعيد ناداني، وأول ما ناداني، جرى لي ما جرالي" ولكن لفت انتباهه أن رقم المتصل لا يظهر. ليس هناك رقم ولا يظهر سوى تلك العبارة "unknown". وليس من المعتاد أن يرد على من يجهل هويته ولكنه استجاب لنداء بداخله يجهله ولكنه يصدقه فأجاب:

- آلو.

لم يتلق إجابة، فعاود مرة أخرى:

- آلو!

همّ أن يغلق الاتصال ولكنه سمع شخصًا ما يتنحنح وكأنه خاجلٌ من شيء ما، فقال في هدوء:

- أحمد جلال.. آلو؟

في تلك المرة جاء الرد من صوت لم يكن متوقعًا على الإطلاق:

- أحم.. آلو.

شعر وكأنما قد صُب عليه ماء ساخن في منتصف أغسطس. سمع صوتًا أنثويًا، حانيًا، هادئًا، مريحًا للأعصاب ومثيرًا لإفراز هرمون السلام والاسترخاء.

- أيوه يا فندم اتفضلي.

- أيوه يا أستاذ أحمد.. أنا مريم.

هنا وقفت عقارب ساعته وتسابقت الذكريات إلى عقله وقلبه، فذهب إلى مكان يألفه كثيرًا. ذلك الاسم الذي ارتبط به كل ما هو جميل في حياته..

مريم..

- أستاذ أحمد حضرتك معايا؟

نفض رأسه من تلك الهواجس والأفكار التي تبقيه بعيداً في عالم الآخر الذي لم يسمح لأحد أن يدخل ذلك العالم. لم يسمح إلا لها.

- آسف يا أستاذة مريم كنت بفكر ف حاجة بس.. خير أنا تحت أمرك؟

- خير.. أنا لازم أقابل حضرتك ضروري ويا ريت في أسرع وقت ممكن.

- مفيش مانع.. أنا بيقى موجود هنا في الكافية على طول من بعد الساعة ٧ بالليل وهو عنوانه ميتوهش.. شارع شبرا واسمه golden cafe.. سهل جداً توصلي له لو سألتي عليه.

- لا انا متأسفة جداً مش هينفع أشوف حضرتك في مكان عام.

ساد الصمت قليلاً وربما قد انتابه شعور يجهله ولكنه يشبه الخوف. شعور يلامس حواسه الكتابية وتنبيه بأن هناك مغامرة أو شيئاً ما، فقال بثقة محاولاً إخفاء ذلك الاهتمام:

- امم تمام زي ما تحبي. تحبي أقابل حضرتك فين؟

قالت وكأنها تنتظر السؤال:

- الساعة ٦ بكرة ف سينما مترو.. ينفع؟

يعلم أن الغد يوافق يوم عطلته الأسبوعية فلا مانع لديه من الذهاب ولكنه أراد مزيداً من إظهار شخصيته المعروفة لدى الجميع والذي شعر بأنها قد تحولت معها وهو مؤشر بأشياء لا ترضيه على الإطلاق. فقال وكأنه يحاول إنهاء المكالمة:

- لا للأسف بكرة مش فاضي.. شوفي ميعاد تاني؟

صدر صوتها تلك المرة وكأنه حاملاً قافلة من الخوف والرجاء:

- أرجوك يا أستاذ أحمد حاول.. الموضوع مهم جداً صدقني.

وكصائد ماهر يعلم أن الفريسة ستأتي حتماً إلى شباكه كما يريد. فقال في هدوء:

- خلاص هحاول إن شاء الله.. مع السلامة.

وضع الهاتف على منضدته وتناول حافظة نقوده وأخرج منها ورقة يبدو وكأنها الأهم بين تلك الأوراق لأنها كانت مخبأه في جيب سري لا يعرفه سوى من صنعها ومن يبيعها ومن يشتريها، لا رابع لهم. تنهد حتى سار الهواء البارد يملأ ضلوعه فشعر بلسعة برد خفيفة فابتسم وأخذ الورقة وبدأ يقرأ ما فيها:

" مريم :

الطفلةُ العجوز. الساكنة في دير صُنع بأيدي الملائكة المطهرين، هادئة، نقيةٌ كالندى المعلن عن سقوط الرحمة. تعاقب الزمن عليها ولا زالت عاكفةً تصلي في المحراب ولا زال عيسى ينتظر تبشيرها به.

أشعر أحيانًا بأن حُبك كالطاعون الذي إذا ما راودته البرودة واختبئ في قلوب أحد الرجال فسوف يحتل جميع الخلايا حتى تُعلن جميعها الاستسلام للإصابة بك. سألتُك مرة عن سر ذلك الحجاب! وأنكرت تمامًا استعانتك بقبيلة من الجن في صُنعه. فليس من المعقول أن يكون هيامُنا به طبيعيًا أبدًا. أثق تمامًا أنَك استعنت بهم. وأثق أيضًا أنك خُلقت لإثبات أن البساطة إمامٌ يسير وراءه كل ما هو جميلٌ في دنيانا.

أعلمي يا مريمُ بأنك لست معجزة ولكنك ستظلين حكايةً يرويها أجدادنا لأحفادنا. أعلم انَك ستقرئين تلك الخاطرة التي أرويها لعشّاق النقاء في أبسط صوره المجسدةُ في امرأة. ستنزعجين من ذلك ولكنني أردتُ أن أنبههم أنك في عصرهم فليحتفوا بترابك ويُقبلُونه علّهم يدخلون الجنة.

دُمت مريم. "

لم تكن الكلمات فقط ما بداخل تلك الورقة. ذلك العطر الذي لم يفارقه رائحته منذ أن كان يكتب تلك الرسالة كان بمثابة الروح التي يتركها الكاتب في كلماته وكأنه يستودع شيئاً منه في شيء منه.

أغلق الورقة وأعادها مجدداً إلى مكانها ثم سار بخطوات هادئة ناصباً عينيه إلى المطر الذي يشتد حيناً بعد آخر. وقف أمام النافذة ليظهر أمامه شخص يكاد يعرفه. رجلٌ ذو قامة طويلة تضعه في مصاف الوسماء، ليس بالأبيض ولا بالأسود ولكنه يميل إلى اللون الخمري في أزهى درجاته، يرتدي نظارة عريضة تخفي عينيه الضيقتين وترسم تناسقاً هائلاً مع شعره المصفف ولحيته المنسقة وجسده النحيف.

ظل ينظر إلى نفسه وكأنه يتكلم أو يعاتب ذلك الشخص الذي يراه في انعكاس المرآة. لم تكن ملامح وجهه تنبئ عن أي شعور يوجهه له ولكنه الهدوء الذي يسود ملامحه لا يتغير إلا في أوقات تكاد أن تكون لا تذكر. فهو هادئ دوماً، لا يتكلم إلا عند الضرورة والضرورة تكون طبقاً لما يراه ضروري ليس ما يراه الناس ضرورياً. فهو لا يعير الناس أي اهتمام سواء لأرائهم في الحياة أو أرائهم فيه هو. يفضل أن يبقى على بعد مسافة من الجميع لأنه يرى أن الأشياء يزيد جمالها كلما بعدت مسافتها. يعشق التفاصيل وكل من يعشقها مثله. تميزه تلك الابتسامة التي لا تفارق وجهه إلا عند القراءة، فبينه وبين الكتب علاقة لا يفهمها سوى من صادق الكتب فصادقته وأصبحا كعاشقين غايتهم

العشق لا شيئاً آخراً؛ ونتيجة لهذا العشق المقدس التحق بكلية الإعلام ليصبح كاتبًا في جريدة "الحرية" ليكتب قصصًا قصيرة ومشاهدًا نثرية، وبعضًا من محاولاته الشعرية حتى ذاع صيته شيئًا فشيء إلى أن أطلق روايته الأولى التي لاقت رواجًا كبيراً بين الناس فأصبح ذا قلم مسموع.

تقول والدته: إنه ورث تلك الموهبة من والده الذي من وجهة نظرها الأفضل في تلك المقارنة ولكنه قد رحل قبل أن يعلم أن ذلك الغصن الذي نبت من جذوره قد أصبح مشهوراً بشكل لا بأس به على الإطلاق.

***

**شارع محمد علي - القاهرة**

تعالت الأصوات في جميع أرجاء المكان؛ أصوات بكاء وصراخ تعكس ما يُتوقع حدوثه، وعلى الرغم من تلك الأصواتِ كان هناك أصوات تراتيل وترانيم في الشقة المجاورة. إنه السابع من يناير وهو يوم يكون لليل فيه الغلبة على النهار فلا يمكث النهار طويلاً ولهذا قد أُختير للاحتفال بذكرى عيد الميلاد عند الطوائف المسيحية الشرقية.

في تلك الشقة المجاورة يسكن بها الأستاذ "مجدي عطا" المحامي وهو شخص محبوب لدى الجميع؛ له بنت تسمى "لمى" وهي ابنته الوحيدة التي أنجبها من زوجته دينا. يعتبر أن صديقه الأستاذ "جلال العلواني" الذي يسكن بالشقة المجاورة التي يصدر منها تلك الأصوات، هو الأخ الذي منحه الرب إليه بعد سنوات وحدة رغم اختلاف دينيهما، ونتيجة لتلك العلاقة المتبادلة قد أصبحت زوجتيهما بمثابة الأختين أيضًا؛ حتى قررتا أن ترضعا ولديهما حتى يصبحوا جميعًا عائلة واحدة.

"أحمد ولمى"

ولِدا في نفس التاريخ ولكن بفارق خمس دقائق أُذن "لأحمد" الخروج فيها قبل "لمى".

وفي أثناء صلاتهم وتعبدهم سمعوا تلك الأصوات فهرعوا إليها تاركين كل شيء. فهم يعلمون أن الأستاذ "جلال" قد غلبه المرض واستولى على خلاياه ذلك المرض الصهيوني الذي يستوطن أي خلية يزورها ويعلنها خلية سرطانية رغم أنف جميع أعضاء الجسد. فور دخولهم وجدوا زوجة الأستاذ "جلال" تجلس القرفصاء على الأرض أمام غرفة معينة. تجلس صامتة لا يظهر لها أي ردة فعل مما تعلنه تلك الأصوات؛ لا تزيغ عيناها عن مقبض باب الغرفة التي تجلس أمامها تنتظر أن تتحرك معلنة خروج الطبيب. تكاد عينيها تنفجر من حبس

البكاء فأصبحت تميل إلى الأحمر الدموي ولكنها تحافظ على عدم انفجار ذلك البركان كي لا يرى أحمد ذلك. هذا الطفل الذي لم يتجاوز السادسة بعد، الجالس بجوارها على الأرض في هدوء تام.

دقائق وخرج الطبيب وعلى ملامحه علامة تؤكد أن بكاءهم يسير في النهج الصحيح. نظر إلى تلك السيدة الجالسة على الأرض وقال بصوت تميزه نبرات الانكسار:

- مدام منى.. أستاذ جلال عاوزك أنتي وأحمد جوه.. يا ريت تدخلي بسرعة.

قامت بمرونة فائقة لا تعلم من أين جاءتها فقد سكن الحزن ضلوعها فأصبحت هشة لا تقوى على شيء رغم صغر سنها، فهي لا تزال في العقد الرابع من العمر ولكن أحيانًا يقاس العمر بالحزن لا بتعداد السنوات.

أمسكت بيد طفلها ودخلا الغرفة وسط ترقب من أقرباء ذلك الشخص الذي أصبحت دقائقه معدودة في تلك الحياة.

ضوء خافت من "أباجورة" تعلو ذلك "الكومودينو" وتجاور الصورة التي تجمع ثلاثتهم قبل مرضه بقليل. نظر إليهم وابتسم ثم فتح ذراعيه فلبوا نداءه مسرعين وجلسا إلى جانبيه يقبلان يده، ابتسم في هدوء ونظر لزوجته التي انفجر البركان في عينيها فأفرزت قنواتها

الدمعية بحاراً من الألم والوجع. ظل ينظر إليها "أحمد" وهو لا يفهم شيئاً سوى أن تلك السيدة قد تعلم منها أن البكاء لا يكون إلا أمام من تثق أنه لن يخذلك أبداً، ثم نظر لأبيه وهو يعلم بأنه يعاني من شيء مخيف يجعله يتأوه دائماً.

قطع ذلك الصمت صوت "جلال" الذي بدا وكأن الكلمات تخرج منه بصعوبة بالغة كصعود نملة على جبل في ليلة شديدة الظلام والبرودة:

- ماتعيطيش يا منى.. ماتعيطيش.

أمسكت بيده ووضعتها على خدها وبكت أكثر وقالت بصوت لا يكاد يفهم من شدة البكاء:

- ماتتكلمش يا جلال عشان ماتتعبش أكتر.. إحنا مانقدرش نعيش من غيرك صدقني.. إياك تستلم يا جلال.

ابتسم وهو يمسح الدموع عن خدها بيد ضعيفة مهتزة، وقال في هدوء:

- معلش لازم أتكلم.. أنا تعبت يا منى ومش هقدر استحمل أكتر من كده.. أنا بحبك جداً ومش هطلب من ربنا زوجة غيرك.. وهفضل عايش حواليكم دايمًا.. عاوزك تبقى قوية زي ما علمتك. أنا سايبلك حتة مني عايشة معاكي.. شبهي في كل

حاجة حتى حبه لبكي . . كل ما تبصيله هتفتكريني . . خلي بالك منه ومن نفسك.

صمت قليلاً يستجمع بعضًا من القوة التي لم تعد موجودة مطلقًا ثم نظر "لأحمد" الذي لا يزال صامتًا ولم يحرك ساكنًا سوى أنه ينظر له وكأنه يخبيء بداخله تلك اللحظة التي لن يسمح لها بالفرار منه أبدًا. ضمه إليه واحتضنه ثم أشار لوالدته وقال في صوت يبحث عن القوة:

- خلي بالك من ماما يا أحمد . . ماتزعلهاش وخليك دايمًا ضهرها وحمايتها . . كان نفسي أعيش معاك يا حبيبي وأعلمك كل حاجة بس معلش مش قادر أتحمل أكتر من كده . . أنا أسف يا ابني.

لم يشعر "أحمد" سوى بدموع تهبط على خديه وتعلمه أن والده يعد أغراضه للرحيل. نظر له ليجده مبتسمًا وكأنه يعلم أن ابنه يلتقط له صورة ستخلد في ذاكرته طيلة حياته. شعرا وكأنه يريد قول شيء آخر ولكنه لم يعد قادرًا على الحديث بعد، ولكنه استجمع ما تبقى لديه من أنفاس وجذب "أحمد" إليه وهمس في أذنه بكلمة ثم نظر لزوجته وأغمض عينيه في سلام، ورحل.

***

هدأ المطر فهدأ معه ذلك الصراع الذي نشب بداخله وعادت كل العواصف إلى سكناتها تنتظر نداءً آخر. نظر في ساعته فإذا بها الحادية

عشر فلملم الأوراق ووضع كل متعلقاته في حقيبته. توقف فجأة عندما شعر بيد تهبط على كتفيه برفق فنظر خلفه فإذا هو برجل خمسيني يغزو الشعر الأبيض رأسه بالكامل عدا بعض الشعيرات التي أبت ذلك الاحتلال المخيف الذي يزيد استيطانًا كلما زاد العمر. يبدو من هيئته أنه يعمل في ذلك المكان ولكن من المؤكد أنه يعرف "أحمد" تمام المعرفة وكان ذلك واضحًا من ابتسامة أحمد التي لا تظهر بهذا النقاء إلا عندما يرى شيئًا يحبه. عاد "أحمد" لاستكمال ما يفعل وبادر قائلاً:

- لازم تخضني كده كل مرة يا راجل يا طيب.. مش هتكبر بقى وتبطل الحركات دي؟

نزع يده من على كتف أحمد وجلس بجانبه في صمت دون أن يعلق على ما قاله له مما دعا أحمد أن يكمل وهو ينظر لشخص يبدوا أيضًا أنه يعمل في ذلك المكان:

- هو اللي هناك ده بيبصلي كده ليه؟! دي مش أول مره يفضل متنح ليا كده هو شايفني بتشقلب ولا يكونش معجب بيا ولا مؤاخذه؟! شوف ماله يا عم إبراهيم عشان الموضوع ده بدأ يضايقني.

زادت ابتسامة "إبراهيم" وهو يلوح بيده مشيراً له بأن لا يكترث وقال بصوته الذي تميزه نبرات الوقار والرزانة:

- سيبك منه.. تلاقيه بس عشان هو جديد فمش واخد على الزباين اللي بيجوا هنا على طول.. المهم يعني طمني أنت عامل إيه وشايفك كده بتقرا حاجة.. حاجة جديدة دي ولا إيه؟

- لا مش حاجة جديدة ولا حاجة.. دي حاجة كنت كاتبها لمريم.

وأكمل وهو يشيح بنظره إلى النافذة التي كان يقف أمامها:

- تقريبًا كنت كاتبها في نفس الوقت.. المطر والبرد والقهوة والمزيكا.. كل حاجة رجعت زي ما هي إلا هي.. تفتكر هي حاسة بكل ده؟! تفتكر هترجع تاني؟

ترك "إبراهيم" فنجان القهوة الذي كان ممسكًا به وهو يقرأه في صمت كعادته ونظر "لأحمد" الذي لازال ينظر إلى النافذة وكأنه يحادث شخصًا ما يقف في الخارج ينظر له من خلف النافذة، شخصًا ما اعتاد أن يراه يتراقص على ألحان سقوط الأمطار على الأرض، شخصًا ما يعشق هذه الأجواء كما يعشقها هو.

- بص يا ابني.. ربنا خلقنا في الدنيا دي إنصاص.. ومفيش نص شبه التاني.. وكل واحد فينا هيجيله يوم ويقابل النص التاني ده وغالبًا هتبقى صدفة بحتة.. بس عشان إحنا بنعرف الصدفة عندنا بأنها حاجة بتحصل من غير ترتيب.. إنما الصدفة في تعريف القدر هي شوية حاجات كده مترتبة مع بعض وبتحصل وقت لما الناس تتأكد

إنها مش هتحصل. فمش منطقي أبدًا إنك بعد ما تلاقي نصك يضيع منك. أكيد هترجع وهيحصل اللي أنت عاوزه صدقني بس وقت لما تبطل تستنى.

قال "إبراهيم" تلك الكلمات وقام بهدوء وانصرف وترك "أحمد" الذي كان يصغي تمامًا لما يقول قد حمل حقيبته وترك المبلغ الذي يدفعه كل يوم وسار ناحية الباب وقد لفت انتباهه أن ذلك الشخص ما زال ينظر إليه ولكنه لم يكترث وأكمل طريقه حتى داعبت نسمات البرد صدره وملئ المطر كيانه برائحته المميزة فتذكر ما يقول دائمًا:

"أجمل ما في المطر أنه يترك رائحته ولا يأخذها معه"

أغمض عينيه واستنشق طويلاً تلك الرائحة التي يعشقها وتمده بطاقة تكفيه لكتابة آلاف الأوراق. اصطدمت الرياح بجسده بقوة ففتح عينيه وأكمل سالكًا نفس الطريق الذي يسلكه كل يوم.

شبرا وشوارعها القديمة، وأعمدة الإنارة التي تواجه البرودة وحدها. أخرج من حقيبته سماعات الأذن ووضعها في أذنيه وترك الهاتف يختار شيئًا بشكل عشوائي وليته ما فعل، فمن سوء حظه أنه سمع في أذنيه موسيقى تعلن بقدوم تيارات من الحنين والذكريات.

"عمرو حسن"

ذلك الشاعر الذي حزن الشعر لحزنه فصنعا سويًا قصيدة تعد كتعويذة إحياء لكل من ترك له الشتاء قبوراً من الألم والذكريات بداخله. أخذ يستمع له كأنه يقول ما يريد قوله ولكن بحرفية مميتة. زاد الهواء أكثر واشتدت رائحة المطر فتثنت "لعمرو" فرصته فصرخ في حزن بصوت هادئ قد كسره الوجع:

" طب إيه يا عم الشتا ؟؟ طب إيه؟

أنا تحت عيني أتهرى من كتر ما حنّيت

فكرّت فيها ضحكت.. ضحكت فجأة بكيت

ليه الشوارع كلهم قاصدين

يفكروني باللي مش فاضلين؟"

شعر بثورة داخله تأكل كل شيء. لا تبق أحداً يحيا بداخله وتميت كل ما تراه؛ فأغلق المشغل ووضع السماعات في حقيبته مرة أخرى وما هي إلا دقائق حتى وصل إلى المترو فاستقله إلى محطة "محمد نجيب" حيث يسكن بشارع محمد علي في وسط القاهرة.

المترو وسيلة للمواصلات اختُرعت ليعلم المرء أن هناك من هو أسوأ حالاً منه. فهناك الملايين ممن يرتادون تلك المواصلة يوميًا وبرغم ذلك نادراً ما تقابل شخصاً مرتين؛ فكل يوم ترى وجوهًا مختلفة، حكايات مختلفة. هذه هي أهم هوايات "أحمد"؛ قراءة ما يحكيه الناس

عبر ملامحهم البائسة. فهو يحب أن يرى الناس من داخلهم. فلكل شخص حكاية لا تختلف بؤسًا عن الآخر؛ فهناك من قسمت ظهره الديون فترى في وجهه ملامح الانكسار والذل، وهناك من يعلم أن غده لن يختلف كثيرًا عن يومه سوى المزيد من الرغبة في الموت، وهناك من تقر ملامحه بأنه يعيش فقط لأنه لا يريد أن ينهي البؤس بالهروب، فالانتحار ما هو إلا دربًا من دروب الهروب، وهناك آخرون لا يودون أن تفضحهم ملامحهم فيكبون وجوههم على هواتفهم ولكن هذا لا يروق للآخرين فيكبون وجوههم معهم ويشاركونهم هروبهم فيزيدونهم بؤسًا فوق بؤسهم.

***

وسط القاهرة، الشوارع والأزقة. الروائح التي تحملها البنايات والعمارات القديمة بين ثناياها، وشارع محمد علي. ذلك المكان المشهور بمحلات بيع الآلات الموسيقية وزحمته الكثيفة التي ترسم القاهرة في أبهى صورها.

يمشي "أحمد" بين صدور تلك البنايات القديمة والتفاصيل التي تأسره بداخلها منذ أن كان طفلاً صغيراً. بعد دقائق وصل إلى منزله في تلك العمارة القديمة نوعًا ما كسائر العمارات المجاورة.

لوَّح بيديه لشخص يجلس على كرسي خشبي أمام العمارة يبدو أنه يعمل بوابًا لها. رد التحية ذلك الرجل في عجالة ليكمل حواره في الهاتف بصوت يسمعه جميع المارة مما دعا أحمد أن يبتسم في استنكار إذ لا فائدة أبدًا.

"المصعد لا يعمل رجاء صعود السلم"

لم تفارق تلك البسمة الاستنكارية وجهه عندما رأى تلك الورقة معلقة على باب المصعد فاتجه ناحية السلم وصعد حتى وصل للطابق الثالث حيث يسكن. أولج المفتاح في الباب ودخل ليرى صورة أمام عينيه فوقف وأخذ ينظر إليها في هدوء تام.

***

تعالت أصوات البكاء عندما خرجا إليهم وقد بدا على وجهيهما أن الأمر قد انتهى. ذهبت "دينا" إلى "منى" واحتضنتها بشدة فما كان من "مجدي" إلا أنه خرَّ على ركبتيه من شدة البكاء. سارت "لمى" حتى وقفت بجانب "أحمد" وهي ترى على وجهه ملامح تخيفها لم تتعود أن تراها على وجهه من قبل. وقفت بجانبه دون أن تنطق ولم ينطق هو أيضًا.

رفع "مجدي" عينيه وأشار "للمى" أن تأتي "بأحمد" فأخذته من يده وذهبت به إلى أبيها فاحتضنه بشده وهو يبكي في ظل صمت

"أحمد" الذي لم يبدِ أي رد فعل، ما زال كلام أبيه يتردد في أذنيه، وما زالت تلك الكلمة التي همس بها في أذنيه يقرؤوها على الجدران وعلى كل شيء تقع عليه عيناه. نظر له "مجدي" وهو متعجب من هدوئه الغريب وقال وهو يمسكه من معصميه:

- بابا مماتش يا أحمد.. أوعى تفتكر إنه مات.. بابا هيعيش جوانا طول ما إحنا عايشين.. متخافش أنا مش هسيبك وهفضل دايمًا بابا وهربيك زي ما كان هو هيربيك بالظبط.. متزعلش منه وأعرف إنه بيحبك جداً وسابك غصب عنه.. إياك تزعل منه يا أحمد.. إياك.

نزلت دموعه رغم عنه وارتمى في حضنه وأخذ يبكي كأنها هي المرة الأخيرة التي يبكي فيها بهذا الطريقة. بكى حتى قلبت "لمى" شفتها السفلى معبرة عن حزنها وبكت معه وارتمت في حضن أبيها هي الأخرى فاحتضنهما سويًا في مشهد لم يمحَ من ذاكرتهم أبدًا.

***

"أنت جيت يا أحمد"

قطعت تلك العبارة قطار ذكرياته وتفكيره فانتبه وأغلق الباب خلفه ودخل. كان ذلك الصوت أتيًا من الداخل وما إن هم أن يرد حتى سمع نفس العبارة ولكن بصوت مختلف:

"أنت جيت يا أحمد"

هذه المرة كانت تختلف عن المرة الأولى لأنها لم تكن بنفس الصوت. هذه المرة كانت بدلال أكثر تبعتها ضحكة خفيفة تميز بنت في العقد الثالث من العمر، أما الأولى فقد بدت لامرأة قد جاوزت الخمسين ربيعًا بسنوات قليلة. فابتسم في سلام تام لأن تلك الأصوات هي المحببة لقلبه على الإطلاق. لم يرد عليهما ووضع الحقيبة على الكرسي واستلقى بجانبها حتى ظهرا أمامه.

بدت الأولى خمرية اللون تشبهه كثيرًا عدا عينيها البنيتين التي لم تعطها له. أما الثانية فقد بدت سمراء نقية كسماء في ليلة صيفية تتوسط خدها الأيمن نغزة تزين ضحكتها التي تأسر بها قبائل من الرجال خاضعين لها. ينسدل من على كتفها الأيسر شعر لو أخذ منه خصلة واحدة لأنتجوا منها أثوابًا من الحرير الناعم والجميل.

نظر لهما وابتسم. بسمة تزيح عنه كل ما يحمل. فهما كل ما يملك. هما الشيء الوحيد الذي لا يتنازع القلب والعقل عليهما. إنهما الحياة بداخل الحياة بالنسبة له.

- شايفة يا منى الكآبة اللي ابنك فيها؟ تحسي مثلاً إنه الراعي الرسمي لترب الغفير والله.

قالت "لمى" تلك العبارة وهى تشير إلى "أحمد" الذي ضحك على ما قالت وضحكت معه "منى". فهما يعتبرانها الروح الطاهرة خفيفة الظل التي منحهم الله إياها لتخفف عنهم كل شيء.

فهي ابنتها التي أرضعتها واعتنت بها بعد ما رحلت أمها منذ سنوات قليلة. وهي أخته التي عاشت معه جميع مراحل حياته. تعلم عنه كل شيء وتفهمه دون أن يتكلم. أصبحت لديهم نفس الاهتمامات والأذواق في كل شيء. يسهرون دائمًا في شرفة شقتها ليلة الأحد يغنون على أنغام عود الأستاذ "مجدي" والدها. ولكن كان ذلك قبل الحادثة التي حدثت "لأحمد" فمن وقتها ولم يعد أحمد كما كان أبدًا. فقد أصبح يميل للوحدة أكثر ويجلس في الظلام منفردًا. يتعاطى القهوة ولا يشربها. يدخن بشراهة كثيفة. فعلت "لمى" ما بوسعها لتخرجه من الحالة التي أصبح فيها ولكنها لم تستطيع ذلك. فهناك شخص واحد هو القادر على ذلك ولكنه لم يعد موجودًا فلذلك لا يتوقع أن يعود "أحمد" كما كان, لكن "لمى" لم تفقد الأمل ولن تفقده أبدًا.

فهو هي ولكن في ثوب آخر. تحبه كما تحب أمها التي رحلت عنها ويحبها هو كما تحبها أمه أيضًا. فهو يعتبرها الظل في ظهر نهار مشمس. يختبئ بداخلها عندما تذيع برودة الأقدار. فهي ليست نصفه الأخر ولكن هي نصفه هو.

- والله يا بنتي مبقتش عارفه أعمل معاه إيه.

قالت "منى" تلك العبارة مؤكدة على ما قالته لها "لمى".

- طب تمام يعني انتوا هتحدفوني لبعض وكده زي كل مرة.. أنا هروح أشوف عم مجدي فين عشان واحشني.. أبوكي هناك يا بت ولا فين؟

نهض "احمد" من على كرسيه وهو يقول ذلك الكلام مختتمًا بضربة على جبهة "لمى" والتي يعلم بأنها تجن منها فما كان منها إلا أنها أمسكت يده فضربها بالأخرى وأمسك ذراعها ووضعه حول ظهرها ودنى من أذنها وتحدث وهو يضحك:

- ها يا لمضة هنبطل طولة اللسان دي ولا أخلي أكبر حته فيكي أصغر من صباع رجلك الصغير؟

نظرت له وهي تفلت يديها من قبضته ولكنها لم تفلح فضحكت وقالت:

- تصدق بالله يله! لولا الست الكبارة اللي واقفة قدامي دي أنا كنت تفيت عليك حرقتك.

ضحكت "منى" مما قالت وضحك "أحمد" أيضًا وترك يدها قائلاً:

- ماشي يا عم التنين المجنح. اخلصي أبوكي فين؟

- يا عم معرفش ياعم.. بس غالبًا بيصيع برة.

وغزتها "منى" في يدها وغزة خفيفة وهي تقول:

- بس يا جزمة حد يقول كده على باباه!

وضعت "لمى" يدها على كتف منى وبدت وكأنها تتكلم بجدية:

- تصدقي بالله يا منى! أنا خايفة عليه من البنات لا يفتتنوا بيه وهو أقرع وحليوة كدة. قولتله أجوزك مرضيش.. طب جوزني أنا طيب قالي صدقيني أول ما يتقدملك حد هقوله خدها وسربها ومش عاوز منك حاجة.. بيحبني أوي مجدي ده.

ضحكا لما قالت فضحكت معهما. تلك هي السعادة التي يعيشون بها ولأجلها. ذلك هو الحب الذي خلقنا من أجله، نحب لنعيش ونعيش لنحب. تلك هي حكمة تلك الأسرة الذي تغوص في أعماق الحزن ولكنها تعلم كيف تستخدم قوارب النجاة الحقيقية.

ظلت أصوات الضحك تشدوا وتحلق في جميع أرجاء البيت حتى ذهبت "لمى" و"منى" إلى المطبخ وأحضرتا العشاء واجتمعوا ثلاثتهم على مائدة الطعام ولا تزال "لمى" تفعل كل شيء ليضحك أحمد فتضحك وتضحك الحياة لها. ظلوا يتسامرون إلى الثانية صباحًا حتى سمعوا صوت باب شقة الأستاذ "مجدي" يعلن "للمى" أنه قد أتى، فودعتهم وذهبت لأبيها فقبل أحمد يد أمه وهوى إلى فراشه لينام

ويستعد لموعد الغد. تلك المقابلة التي لا يعلم عنها شيئًا سوى أنه ينتظرها بفارغ الصبر ولا يعلم لهذا أسبابًا واضحة.

***

السادسة إلا ربع أمام سينما مترو..

ازدحام شديد.. "بوسترات" لأفلام تشير إلى أن هناك فقرًا في ابتكار الأفكار الجديدة؛ فكرة واحدة (تتكرر) ولكن الأبطال مختلفون. عدا فيلمًا واحدًا شعر أنه مختلف عنهم وقد لفت انتباهه، فنوى أن يشاهده لاحقًا لأنه اليوم ينتظر شيئًا يعتقد أنه أهم من إعجابه بالفيلم وفضوله لمشاهدته. تصاعدت نغمات هاتفه وإذا بمنير يصدح مجددًا فأجاب متثاقلاً كعادته؛ كأن الانتظار لم يأكل ما تبقى من رزانته ولكنها لم تسعفه ولم تعطِ له فرصة أن يتكلم فباغتته مسرعة:

- القاعة التانية واقعد في أخر كرسي على اليمين.

أغلق المكالمة ولم يعقب. أخرج سيجارة وأشعلها وبدأ في ممارسة هواية من هواياته المفضلة، رؤية المارة من بين دخان سيجارته وكأن في ذلك الدخان شيئًا يجعله يرى الأشخاص بوضوح تام من غير أقنعة زائفة. يبدون عراة من غير أقنعة تخفي ما لا يريدون إظهاره، ولكنه يرى ذلك بمجرد أن يأمر القداحة بإشعال جنوده فتبدوا الأشياء كما لا ينبغي لها أن تبدو.

القاعة لا تعج بالمشاهدين، وهذا ما أثار إعجابه فاتجه لليمين وجلس واضعًا إحدى قدميه على الأخرى ينتظر. هدأت تلك الأصوات المنبعثة من الموجودين بالقاعة عندما بدأت موسيقى تنبههم أن الفيلم سوف يبدأ. ابتسم عندما وجد أن ذلك الفيلم الذي كان ينوي مشاهدته لاحقًا هو ما قد دخله فهو لم يهتم وهو يشتري تذكرة للدخول سوى أنه يريد الجلوس في القاعة الثانية وهذا ما أثار فضول العامل بقطع التذاكر.

أخذ يتابع أحداث الفيلم في انتباه شديد حتى اندمج في الأحداث كليًا وبدا مركزًا تمامًا حتى حدث ما أفقده ذلك التركيز. كان الصوت الذي سمعه سابقًا، كان كالبحر الثائر الذيَ ينهمر في أذنيه فأفقده تركيزه. قالت وقد بدا لها أنه لم يسمع جيداً ما قالت، فأعادت:

- شكراً إنك جيت يا أستاذ احمد.

نظر بجانبه فإذا بها امرأة منتقبة لا يظهر منها سوى عينين يكاد يجزم بأن الله لم يخلق ما يضاهيهما جمالاً. فقد تلونت بمزيج من الأخضر والأزرق الذي لم يتثنَ لأحد من بنات حواء أن تأخذه مثلها، لم ينبغِ إلا لها، لها فقط. نفض رأسه لينتبه لما يفعل، فقد بدا وكأنه معها وليس معها. أسر من قبل تلك العينين التي لا ترحم أبداً، فليس له سبيل سوى أن لا ينظر لهَا لكي لا يدمن ذلك المخدر المنسكب من

عينيها، فعل ما لا يريد فعله، أبعد عينيه عن الجنة لكي لا تعيه فينسى أنه من أهل الدنيا.

- لا ولا يهمك . . أنا كدة كدة كنت جاي أتفرج على الفيلم ده النهاردة.

قالها وهو يشيح بنظره إلى الفيلم ظناً منه أنه قد نجح في أن يعيد رزانته وهدوءه التي انتهكتهما تلك العينان ولكن باءت محاولته بالفشل. فقد ظهر تلعثمه جليًا فيما يقول! يبذل كل ما يملك من طاقة حتى يخفيه وينجح ولكن في هذه المرة لم يستطيع.

- أيًا كان السبب . . المهم إنك هنا.

قالت تلك العبارة وهي تحدق في عينيه ولكنه لم يكن يبادلها نفس الفعل أبداً. بدا مركزًا في الفيلم كأنه قد أتى بالفعل ليشاهد الفيلم ولكنها تعلم ذلك وتعرف عنه الكثير أيضًا فتركته يظن أنه قد نجح في رمي شباكه وإحاطتها بها ولم يلقِ بالاً بأن الطيور لا تُصاد بالشباك.

لم يرد فلم تعقب وأشاحت بنظرها إلى الفيلم وأخذت تفعل مثلما يفعل حتى عم الصمت والهدوء كل شيء. المشاهدون والممثلون حتى الكراسي الجامدة التي لا حراك لها أو صوت. الكل صامتُ إجلالاً لما يحدث.

وفجأة.. تلاعبت أياد ماهرة بأنامل هاجية تفطن الطريق جيدًا إلى القلوب ولا تحتاج لواسطةً لتخترق كل ما تملك من عواطف لتثيرها وهذا ما حدث للجميع. ذلك العناق بين أصابعه وأصابع البيانو قد أصدر صوتًا جعل الجميع في حالة من النشوة والاسترخاء. لهذا خلقت الموسيقى ولهذا خلقنا أيضًا.

لم يكن الصمت حائلاً أبدًا بينهما وبين حديثهما، فقد كان هناك كلامًا كثيرًا قد قيل دون أن يُسمع. لم تكن تلتقي عيناهما ولا ألسنتهما ولكنهما تلاقيا سويًا في عالم لم ينبغِ إلا لهما. تلاقت أرواحهم الباقية دون أن تلقي بالاً لتنافر الجسديين الباليين. تحدثا في كل شيء، ما حدث وما يحدث وما سيحدث. كل ذلك قيل في صمت تام، لم يتفوها بكلمة واحدة ولكنهما قالا كل شيء يمكن أن يُقال.

كان العزف كالمايسترو العبقري الذي يحرك الأحداث ويُراقص الأشياء كما يريد. لا حاكم له إلا هو.

نظرت إليه فوجدته لم يحرك ساكنًا وتعلم أنها إذا لم تبدأ برمي النرد فلن يقوم هو بتلك الخطوة أبدًا. فقالت بعد ما تنحنحت بخفة لتعلمه أنها ستتحدث فينتبه:

- أعرفك بنفسي.. أنا مريم.. صحفية وبكتب على أدي.. بحب كتاباتك جدًا ودايمًا كنت مثلي الأعلى في الكتابة.. تقريبًا حافظة

كل قصايدك واتعلقت جداً بشخصية مريم اللي في رواياتك وتخيلت نفسي مكانها وكنت برد على كل حاجة بتكتبها لها.

ترك الفيلم ونظر إليها لينتبه أكثر فأردفت:

- طبعًا أنا بعتذر عن اللي حصل واني جيبتك هنا بالشكل ده بس صدقني مفيش حاجة بأيدي غير كده ومفيش حد غيرك يقدر يساعدني.

- خير يا أستاذة مريم.. أنا هساعدك طبعًا مدام أقدر أعمل كده.

أعقبت في عجالة كأنها تعلم الرد:

- صدقني مفيش حد غيرك يقدر يساعدني.

لم يعد قادراً على التحمل وإبعاد نظره عن الجنة وما تحوي من بساتين وأنهار من خمر تسكر كل من ينظر إليها. إن عينيها لهي الجنة التي تبعث برحلة إلى عالم آخر للموحدين بجمالها فقط.

فاتبع هواه ودخل. شعر وكأنما قد مدت السماء يدها إلى الأرض فأصبحا شيئًا واحداً. فهو متيقن أنه الآن في السماء لعدم ثبوت قدميه ولكن يعلم أيضًا أنه لم يغادر الأرض لأنه يرى أسراب من الطيور تحلق وتغرد في فرح شديد. فأخيراً وجدوا موطنهم الذين قد حاربوا قرونًا من الزمان بحثًا عنه. إنه الآن في الجنة ولا يريد الخروج.

أكملت وهي تعزف بصوتها موسيقى قد أحكمت إغلاق باب الجنة فامتدت رحلته لدقائق أخرى:

- مش عارفة ابدأ لك الموضوع إزاي.. بس باين كده متهمة بأني قتلت أمي تصدق؟!

شعر بأقدام ديناصور تزلزل أذنيه. ظن أنه لم يسمع جيداً وأن ثمة تيار قارص قد قذفه بعيداً عن الجنة وأهوى به إلى مأوى من لا مأوى له. تأكد مما سمع حين رآها تخرج من حقيبتها أوراق لم تكن غريبة عليه ولكنه لا يعتقد أنه قد رآها من قبل.

أردفت وهي تعطيه الأوراق:

- هنا هتلاقي كل حاجه حصلت ودليل براءتي.. لازم تتأكد إن محدش هيقدر يدافع عني غيرك يا أحمد.

أمسك الأوراق وهو يحاول أن يتذكر أين رآها من قبل ولكنه لم يفلح. لفت انتباهه جملة مكتوبة في منتصف الورقة الأولى بخط مميز يبدو مألوفًا بالنسبة له. كانت تلك الكلمة بمفردها فقط في تلك الصفحة فوجد نفسه يقرأها تلقائيًا بصوت عال.

"مريم"

نظر لها مبتسمًا لينتزع منها بعضًا من القلق والخوف وليطمئنها أيضًا. فقال وهو يزيد من ابتسامته:

- متقلقيش أنا مفيش قدامي غير إني أساعدك.. ومادام بريئة وأنا في أيدي أنقذك أكيد مش هتأخر.

وبرغم تلك الحروب التي تقام بداخله ظل محافظًا على هدوئه واتزانه. تملؤه مشاعر من الخوف والقلق عليها ولا يعلم السبب. ليس هناك شيء منطقي ولا ينبغي للحب أبدًا أن يكون منطقيًا فقد يفقده المنطق أعظم ما يملكه الحب. اللامنطقية والاستعداد لفعل أي شيء وسلوك أي طريق ما دام النصف الأخر يقف في النهاية.

ذهب الظلام فجأة وتوهج النور بغتة ليداعب "أحمد" عينيه فآلمته فأغلقها لثوانٍ وأمسك نظارته ليمسحها وهو غامض العينين كما تعود على ذلك. فَتح عينيه وارتدى نظارته ليجد جميع من في القاعة يتأهبون للخروج ومنهم من غادر بالفعل. فنظر بجانبه ليجد الورق على مقعدها. أما هي.. فلم تكن موجودة.

***

وكعادة المطر يأتي دون إذن ويأتي أيضًا عندما يريد أن يسجل تلك اللحظات في مذكراته المثيرة للشفقة. ولكنه الآن يهبط لسبب ما.

ربما قد علمه "أحمد" الذي يقف خارج السينما وبيده الأوراق ناظراً للسماء كأنه يتلقى وحياً.

بدت الأشياء في تلك اللحظة كأنها تستعد لتكون جزءً من لوحة سريالية عظيمة وكذلك الأشخاص أيضاً. كل شيء يتحرك بنسبية تامة إلا هو؛ لا زال يمارس هوايته المفضلة ويشاهد ما يحدث في سكون تام.

ينظر للأوراق كمن يبحث عن ضالته ولكن لا جدوى من بحثه. تصاعدت نغمات هاتفه ليظهر اسم "لمى" على الشاشة، فضغط على زر الإجابة دون أن يتكلم لتبدأ هي:

- أنت فين يا زفت؟

صمت لثوانٍ ثم تنهد بصوت عالي فسمعته، فقال بهدوئه المعتاد:

- قدام سينما مترو.

صمتت هي الأخرى لثوانٍ لأنها شعرت أن هناك شيئًا ما. فهي تفهمه من نبرات صوته. حتىَ صمته الدائم يخبرها بكل شيء. فأردفت بخفتها الدائمة:

- طيب يا بيه خليك عندك علشان هنجيب حاجات للأتيليه.. عشر دقايق وهكون عندك. متتحركش ومتسمعش كلام حد يقولك تعالى وأجيبلك شوكلاته.. ماشي يا بيبي؟

ابتسم لما قالت ورد موافقًا:

- ماشي.

أغلقت المكالمة فوضع الهاتف في جيبه وأخرج قداحته التي اشتعلت رغم الأمطار وأشعل سيجارة وبدأ يقرأ ما تمليه وجوه المارة مرة أخرى، كان الحنين هو الشعور السائد بين الجميع؛ فالجميع هنا قد آلمه المطر وذكره بكل شيء لا يريد ذكره.

ظل هكذا وحين تنتهي سيجارة يشعل أخرى إلى أن وقفت أمامه تلوح بيديها لينتبه لها ولكنه لم ينتبه لها إلا بعد ثوان واتضح أنها كانت تتكلم ولم يكن يسمع. فأكملت:

- يا ابني الله يخربيتك أنت أتلبست ولا إيه! يا ابني.. أنت يا عم العميق.

أطفأ سيجارته الثالثة وهو يقول:

- مش بقولك أنتي لو بطلتي لماضة تتحرقي.

ضحكت حتى تفتح ربيع خديها فأنبت تلك النغزة الساحرة ليضحك هو حتى تظهر نواجذه ويمسكها من خديها وقال وهو يحرك رأسه كما يفعل دائمًا:

- يووغتي على جمال خدودها يا ناس.. عارفة يا بت يا لمى! بفكر أجيب سكينة وأعملك غمازة في الخد الشمال عشان يبقى عندك غمازتين.

أغمضت عيناها وفتحت فمها إلى آخره ليرسم وجهها شكلاً مضحكًا، فضحك "أحمد" بشدة غير متوقعًا ما فعلت فهي دائمًا ما تكره تلك الفعلة ولكنها في هذه المرة ابتسمت ابتسامة تعني أنها نجحت فيما تريد، فهذا هو ما تريد؛ فقد صار ذلك هو هدفها الرئيسي في تلك الحياة. خطر ببالها عندما رأته يضحك كل ما حدث له وكيف عانى وتحمل ما لا يتحمله أحد ولكنها أقسمت أنه سيعود كما كان. الشمس المشرقة التي تضيء كل مكان يذهب إليه. انبهار الجميع بثقافته ولباقته وذكائه سيعود أيضًا. أقسمت بكل شيء أنه سيعود كما كان.

- إيه يا بنتي سرحانة في إيه؟

قال ذلك الكلام وقد لفت انتباهه أنها تفكر في شيء ما فانتبهت وقالت وقد بدا عليها أنها تتحدث بجدية:

- مفيش.. بفكر ليه أهالينا خلونا إخوات! مش كان زمانا عندنا مدحت دلوقتي؟

انفجر "أحمد" في الضحك ولا يعلم كيف حدث ذلك، لم يضحك منذ فترة طويلة بهذا الشكل ولكنها "لمى". ذلك الاسم القادر على إثبات فشل قوانين الفيزياء والطبيعة؛ فهي الاستثناء لكل قاعدة.

- بصي يا لولو.. في واحد أعرفه قالي كلنا بنعيش عشان ندور على النص التاني بتاعنا وده بيحصل فعلاً. لكن هو نسى يقولي إن الأهم من النص التاني هو نصك أنت. الشخص اللي مينفعش تحبه عشان مينفعش تحصره في علاقة ممكن تنتهي. وزي ما حد قال قبل كده في مليون علاقة بين الحب والصداقة أحسن من الاتنين! أنتي بقى كل ده.. يعني حتى لو مكنتيش أختي مكنش ينفع أحبك لأنك دايمًا أكبر من إني أحبك.. أنتي الضهر اللي بتسند عليه وقت لما أكون مش قادر أقف.. أنتي أنا يا لمى ومحدش يعرف يبقى أنا غيرك.

كانت تنصت إليه في هدوء تام؛ تبتسم في حب غامر قد غمرها حتى أدفئ ضلوعها فلم تعد تشعر بالبرد. ومن الغريب أنها رغم خفة ظلها وثرثرتها إلا أنها لم تستطع الرد ولكنها استجمعت بعضًا من خفة ظلها وقالت وهي تضحك:

- إيييه يا عم أنت صدقت ولا إيه؟ أنا بهزر أساسًا وبعدين كفاية كلام كده عشان بدأت أحس إننا في فيلم الغرام في الحرام.

ضحك مستنكرًا لما قالت وجالت في خواطره كل ذكريات ذلك العمر الذي شاركت معه كل تفاصيله، طفولته، وشبابه، فرحه، وحزنه، ضحكه، ووجعه. شاركته كل شيء حتى أصبحت هو ولكن في صورة بالغة الأنوثة. خبطت بيدها على كتفه ومشت وهي تشير بيدها قائلة:

- تعالى ورايا.

مشيا سويًا ينظران إلى المحلات ويشاهدان جميع ما يعرض من خلف الزجاج، الفتارين المزينة بالأسعار الملتهبة، وشوارع وسط البلد. يعشقانها سويًا فقد خبئا فيها كل ما يريدان من أشياء ثمينة، ولا شيء أثمن عندهما منهم.

يتحدثان وتعلوا ضحكاتهما مدوية تبرق في المطر الذي ما زال يهطل دون تفاهم. حتى وقفت أمام جاليري "سمير بركات" في محيط ميدان طلعت حرب.

- أنا هدخل اشتري شوية حاجات من الجاليري.. هتدخل ولا هتفضل واقف تتفرج هنا كالعادة؟

قالتها "لمى" وهي تنظر "لأحمد" الذي بدا منهمكاً في مشاهدة تلك التحف الذهبية واللوحات التي تجعله يقف أمامها كطفل صغير يشاهد فيلمًا كارتونيًا يحفظه جيداً.

- ادخلي أنتي وأنا هتفرج على الحاجات اللي هنا وهاجي وراكي.

قالها وهو لا ينظر لها فقد خطفت أنظاره لوحة معينة، فدخلت "لمى" وأخذ هو ينظر لتلك اللوحة في تركيز تام. تمنى كثيرًا لو كان رسامًا ليعرف ماذا يفكر هؤلاء المجانين قبل أن يطلقوا ثورتهم في لوحة. ماذا يخطر ببالهم ليبدعوا بهذا الشكل؟! أي جنّ ذلك الذي يتلاعب بخيالهم؟ فهو أيضًا يحب الرسم ولوحات "لمى" كثيرًا ويرى أنها من القلائل التي ترسم ما لا يعرف كتابته. ينتظر أن تفتح الأتيليه الخاص بها لتعرض لوحاتها التي يثق بأنها ستلاقي استحسان كل من يراها.

كانت تدور عيناه بشكل منتظم، يتفحص كل شيء بعينيه ثم ينظر للذي يليه حتى عاد ثانية إلى تلك اللوحة. شعر أنه يريد أن يقول شيئًا ما. لابد أن يكتب الآن. هناك مشهد قد كُون في خياله وأصر أن يُكتب الآن. كانت اللوحة لرجل مسن يُلامس لوحة لامرأة مسنة أيضًا، لم يكن يبكي ولكن كانت ملامحه تقول أشياء أكثر من البكاء. أخرج هاتفه وبدأ يكتب ما يجول في خياله..

* لا أعلم بماذا أشعر الآن ولكني أعتقد أنه الوجع.

ذلك الوجع الذي استوطن بداخلنا فأصبحنا لا نرى سبيلاً للحياة سوى الموت..

حينها، يصبح الموت مأوًى لكل من أراد السلامة من الأوجاع، فعندما تضيق الأرض بما رحبت وتموت ذات الذراعين المطمئنين، عندما تكون ناتج المعادلة غير عادلة.. حينها يجب أن ندرك أننا لسنا سوى أشباه أحياء..

ها قد تحقق الحلم.. أقف الآن في مدينتك التي حلمتي بها. مدينةٌ تسكن فيها لوحاتك المؤمنة بأفكارك الشاردة.. أعلم أنك الآن تطوفين في الأرجاء.. تشاهدين ما يحدث في صمت ماكر.. تستمعين لأراء المبهورين بشرودك وإبداعاتك.. دائمًا كنتَ ترسمين لإرضاء الغريزة الكامنة بداخلك.. تؤمنين بقول أرسطو بأنَ كل فنان يمتلك جنًا خاصًا به وسماه بـ "الموهبة" ونبذ الفنانين جميعهم عن مدينته الفاضلة.. ولَكن يبقى السؤال حائرًا في أذهانهم.. لماذا كُتب على لوحة بأنها ليست للبيع..

أتذكرينها؟

نعم إنها تلك اللوحة التي أهديتني إياها في موسم عشقنا الأول. أتذكر مدى سعادتي بها.. أقف بالساعات أمامها انتشي

برائحة عطرك المنبعثة منها. . ربما قد مر العمر سريعًا وقد أصبحت رجلاً ستينيًا يعيش على حلمك. . قد رحلت ولم تعيشيه ولكنك عشت في عقود من الدهر. . كنت لي وطنًا ولم أكن سوى صبي أشغلك عن ذلك الحلم. . سأبني هاهنا بيتًا في مدينتك وأسكن بجوار لوحاتك. يواسي بعضنا بعضًا ونتبادل الحكايات والذكريات عن امرأة رحلت عن دنيانا ولكنها ما زالت تعيش بداخل كهل يعيش في مدينتها"

- مجتش ورايا ليه يابني؟!

قالتها لمى وهي تقف على باب الجاليري تنظر له فوضع هاتفه في جيبه ونظر لها قائلاً:

- لا مفيش كنت بكتب حاجة كده. . ها جيبتي إيه؟

فأشارت إلى الحقائب التي تمسكها بيدها وقالت:

- جيبت الحاجات دي. . إيه رائيك؟

ابتسم ساخراً وقال:

- آه اللي أنا مش شايفهم دول! لا حلوين فعلاً زوقك حلو.

- لما نروح هبقى أوريهملك.

- ماشي. . بس شكلهم كده غالين.

- مش غاليين ولا حاجة ألفين جنيه بس.

ضحك وهو يقول:

- كام! ابقي هاتيها "لمجدي" على مراحل عشان مينخضش. متقوليهاش مرة واحدة كده.

تذكرت أنها قد نست شيئًا ففتحت عيناها على أخرها ودخلت مسرعه مرة أخرى وهي تقول:

- استني نسيت حاجة.. هدخل أجيبها وأجي.

ابتسم مستنكراً وهو يعيد نظره إلى اللوحات مرة أخرى يبحث عن قصة تثير خياله وتبعث بداخله شيئًا يلهمه بالكتابة. ولكن ما رآه الآن يختلف عن كل ما رأى من لوحات على الإطلاق. إنها الجنة. وجد تلك العينين التي أسرته بداخلها ولم تطلق سراحه في انعكاس الزجاج، ذهل تمامًا لأن ذلك يعني أنها تقف خلفه. ظل مرتبكًا لثوان لا يعلم ماذا يفعل سوى أن يظل محدقًا فيها ولكنه قد اتخذ قراره والتفتَ حوله ولكنها لم تكن موجودة. ظل ينظر في جميع الأنحاء كالمجنون ولكن لا أثر لها. وقف مذهولاً لدقائق وتذكر الورق الذي أعطته له فأخرجه وظل ينظر إليه في سكون تام. حينها خرجت "لمى" لتجده جالسًا على الأرض بجوار الجاليري ينظر لتلك الكلمة التي تتوسط الصفحة الأولى في تركيز تام فوقفت أمامه وقالت وقد بدا عليها القلق:

- مالك يا أحمد قاعد كده ليه؟!

لم ينظر لها ولم يحرك ساكنًا. ظل ينظر للأوراق فحسب. يبحث عن شيء لا يعلمه فكيف يجده. لم تعلم ماذا تفعل فوضعت الأشياء التي اشترتها على الأرض بجانبه وجلست إلى جواره وهي تنظر إليه دون فهم، فقد بدا في الفترة الأخيرة غريبًا كثيرًا وهذا ما أقسمت أنه لن يدوم طويلاً.

- على فكرة الورق ده والخط ده مش غريب عليا.

قالت ذلك الكلام وهي تشير للورق الذي يمسكه فما كان منه إلا أنه نظر لها نظرة تائهة ولم يرد؛ فصمتت هي الأخرى وأخذت تفكر في شيء وتمنت أن يكون تفكيرها خاطئًا.

***

فساتين قصيرة، وصدور عارية تميزها نهود مثيرة، وشعر مستعار قد أخفى تحته رؤوسًا قد أكلها العبث بكل ما هو فاسد. تلك الرؤوس التي لها قطبان لا ثالث لهما، الجنس والمال.

هنا حيث معقل كل من اتخذ القلم منبرًا فأساء إليه ولكنه أوصله إلى مبتغاه.

"المهرجان الأول لتكريم الناجحين المصريين حول العالم"

يفتخرون بصُنع ليس من صنعهم. فلقد وفروا لهم جميع ما يعيقهم في تحقيق ما يطمحون في تحقيقه حتى اضطروا للهروب والسفر خارجًا للبحث عن فرصة أخرى. وعندما مُنحت لهم تلك الفرصة عاد الذين عاقوهم في البداية يفتخرون بهم. تبًا لتناقض يزين سفاهتنا، تبًا لذلك.

نظرت أمامها نحو ذلك الكُتيب الموجود على المنضدة فأخذته لتقرأه. كان شعار المهرجان يتوسط الغلاف الخارجي ففتحته لتجد اسمها في الصفحة الأولى فابتسمت ابتسامة ساخرة وأخذت تقرأ ما هو مكتوب عنها.

"دكتورة علا قُطري..

الحاصلة على جائزة نوبل في الطب النفسي، والحاصلة على دكتوراه من جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية.

لها أبحاث مهمة في مجال الطب النفسي وكُرمت عنها من أعرق الجامعات حول العالم..

ابتسمت تلك الابتسامة الساخرة مرة أخرى وهي تضع الكُتيب وأخذت تتفقد جميع من في الحفل. كانت هي الوحيدة التي ترتدي حجاباً وسط تلك الرؤوس المستعارة، فهي لا تزال في مقتبل العقد

الرابع من العمر. لم تتزوج لأنها ترى أنها لم تنتهِ من رسالتها الأولى بعد حتى تبدأ أخرى.

ظلت تمر بعينيها بين الجميع حتى صعد على المسرح رجل هائل الطول، عريض المنكبين. يرسل عبر وجهه آلاف الابتسامات المصطنعة لجميع من في الحفل حتى دنى من المايكروفون، فوقف بجانبه حتى صدحت تلك الفتاة التي كانت تتكلم بلهجة مثيرة:

- والآن.. سنستمع إلى كلمة صاحب فكرة هذا الحفل المميز، رجل الأعمال الشهير "شريف الشيمي".

تعالت أصوات التصفيق الحار من جميع المدعوين وهو لا يزال يرسل تلك الابتسامات المستعارة الخالية من المشاعر الصادقة. وقف أمام المايكروفون ورتب أوراقه وبدأ يتحدث:

- السادة الحضور.. تشرفت بحضوركم أجمعين.. نحن هنا اليوم لتكريم أفضل من أنجبت أرض مصر خلال السنوات الأخيرة.. كان لابد من تكريمهم وإذا لم تفعل الدولة ذلك وجب علينا نحن كخدام للوطن ورجال أعماله أن نفعل ذلك. "الحكومة مش هتعمل كل حاجه يعني".. فنحن جزء من الدولة.. وأنتم تعلمون جيداً أني كنت مسافراً فترة طويلة خارج أراضي مصرنا الحبيبة لذلك أعرف كيف عانى هؤلاء الرموز المشرفة لنا جميعاً..

وحتى لا أطيل عليكم سنبدأ بتكريم رموزنا غير مشترطين الترتيب.. فلنبدأ بأحد أهم الحضور والرموز أيضًا.. الحاصلة على جائزة نوبل في الطب.. الدكتورة علا قطري..

اتجهت كل الأنظار إليها وهي تقوم في هدوء وتمشي متجهة ناحية المسرح وسط أنظار الحاقدين، الفخورين، المندهشين، ومن لا يكترثون من الأصل. دنتْ من المايكروفون فابتسمت لشريف وصافحته وأخذت تتحدث:

- شكراً على التكريم الجميل ده.. وشكراً طبعًا لكل القائمين على الحفل.. ويتمنى إن شاء الله مصر دايمًا يكون فيها علم بنفس المستوى اللي بره.. إحنا مش أقل منهم في حاجة أبداً.. بالعكس إحنا أحسن بكتير بس نصدق ده.. أتمنى ده يحصل قريب.. شكراً.

أخذت الجائزة الشرفية ثم تجاوزت جميع المقاعد التي مرت عليها لتعود مجدداً لمكانها. ظلت تتابع الأحداث بفتور ملحوظ؛ فهي تعرف جيداً أن هؤلاء هم السبب الرئيسي في خروجها من موطنها لتبحث عن وطن آخر يعطيها الاختيار ولو لمرة واحدة؛ فهؤلاء هم أصحاب القرار فقط أما مَن دونهم فهم من يتحملون عواقب تلك القرارات وحدهم.

وقف أمامها فحجب عنها الرؤية تمامًا نظرًا لبدانته الملحوظة. يحمل كاميرا في يديه والأخرى تحمل كارنيه أعطاه لها لتنظر فيه وتبتسم ابتسامة تعلن بالإيجاب فيبدأ هو بالحديث:

- علي زهدي.. صحفي بجريدة الحرية.. كنت حابب اعمل حوار مع حضرتك للجريدة إن أمكن؟

ابتسمت وهي تهز رأسها في إيجاب:

- تمام معنديش مشكلة.

شعرت وكأنه قد خلصها من هم ثقيل. فهذا الحوار الصحفي سينقذها من صراعات داخلية تنشب بمجرد رؤية تلك الأقنعة الزائفة التي تحملها أجساد مستهلكة أسوأ الاستهلاك. أخرج هاتفه وفعّل المسجل وابتسم لتزين تلك الابتسامة وجهه الأبيض ثم قال وهو يقرب الهاتف منها:

- دكتورة علا قطري.. أهلاً بحضرتك.. في البداية نحب تكلمينا عن المهرجان اللي حضرتك بتتكرمي فيه دلوقتي؟
- أهلاً بيك.. بشكر طبعًا القائمين على الحفل ده وأصحاب الفكرة الحلوة دي وأتمنى متكونش أخر مره.

- تمام.. حضرتك شايفة إن الحصول على جايزة نوبل صعب؟ وإزاي قدرتي تحصلي عليها وأنتي لسه في السن ده؟!

- جايزة نوبل مكنتش بفكر فيها وأنا بشتغل على الأبحاث بتاعتي.. كان عندي هدف لازم أحققه ومن حسن حظي لما حققته لقيت نفسي واخدة جايزة نوبل.

ضحكت وهي تقول تلك العبارة ليضحك هو الأخر ثم أردفت:

- هو الموضوع بسيط ومش معقد.. لازم تحب اللي أنت بتعمله علشان تعرف تحلم.. والحلم ما بيتحققش من غير تعب وتعب شديد كمان.. فازاي هتتعب عشان حاجه مبتحبهاش! فأنا حبيت الطب النفسي وآمنت بنفسي وأني أقدر أكون جزء مهم في الحاجة اللي بحبها وكنت والحمد لله.

- ده صحيح.. لكن مهم برضه نعرف إيه هي الأبحاث اللي حضرتك عملتيها في مجال الطب النفسي؟

أخذت رشفة من كوب الماء الذي يجاور الكتيب ثم قالت:

- أبحاثي كانت عن الفصام أو زي ما هو مشهور بالاسكيزوفرنيا.

- حضرتك تقصدي يعني إن حد يبقى عنده شخصيتين زي ما بنشوف في الأفلام كده؟

ابتسمت وهي تهز رأسها نافية:

- لا.. في فرق كبير بين الفصام وتعدد الشخصية.. الاتنين مختلفين تمامًا.. وكانت أبحاثي عن طرق العلاج من نوع معين من الفصام اسمه الفصام البارانوي وده يعتبر من أكثر أنواع الفصام انتشاراً على مستوى العالم.

ابتسم وهو يغلق المسجل وقد تلألأت على وجهه علامات الفخر:

- بشكر حضرتك جداً يا دكتور.. كلنا فخورين جداً بحضرتك وكان حوار ممتع جداً.. ومعلش يعني لو ممكن كارت لحضرتك عشان في موضوع كده هاجي لحضرتك العيادة عشان أتكلم مع حضرتك فيه.

ابتسمت وهي تعطي له كارتًا قائلة:

- العفو.. أتشرفت بيك يا أستاذ علي.. وفي انتظارك إن شاء الله.

لم يضع الهاتف في جيبه وأخذ يضغط على الأرقام ليتصل بشخص ما وهو يتجه ناحية الخروج، أما هي فقد عادت تتابع الحفل مرة أخرى تنتظر انتهاءه بفارغ الصبر.

ظهرت أمامه قائمة الاقتراحات فاختار الاسم الأول الذي ظهر أمامه واتصل ليجيب الأخر دون أن يبدأ الرد ليبدأ "علي":

- طبعا لو قولتلك إني كنت بعمل حوار مع دكتورة علا قطري مش هتصدقني.

رد بفتور ملحوظ وكأنما شيئًا قد استحوذ على اهتمامه واستهلك جميع ما يملك من تفكير:

- ماشي يا عم.. مبروك.

لاحظ "علي" من رده أنه ليس على ما يرام وأن هناك شيئًا ما قد حدث فقال في نبرة يميزها القلق:

- مالك يا بني في إيه؟!

تنهد "أحمد" تنهيدة طويلة وهو يلقي بجسده على السرير:

- مش عارف يا علي.. بس هبقى كويس متقلقش.

لم تطمئنه تلك الكلمات ولم تُهدئ هاجس القلق الذي أصابه ولكنه تمالك أعصابه وقال في هدوء:

- ماشي يا سيدي أشوفك بكرة إن شاء الله.

- إن شاء الله.

وضع "أحمد" الهاتف على "الكومودينو" الذي يجاور سريره ويحمل تلك الصورة له مع أبيه وأمه. نظر فيها لدقائق ثم وقعت عيناه على الورق الذي وضعه بجانب الصورة فأمسكه.

ظل لدقائق أخرى يحدق في تلك الكلمة التي تتوسط الصفحة الأولى

"مريم".

نشبت بداخله صراعات وحروب أهلية بين الذكريات فور رؤيته ذلك الاسم. جذب الهاتف إليه مرة أخرى وأعده لينبهه في الثامنة صباحًا ثم أعاده مكانه مرة أخرى.

عاد يحدق في الورق ثانية وباغته شعوران متضاربان.. أحدهما يحثه على القراءة وأن يعرف ماذا تحمل تلك الأوراق بين ثناياها، والأخر يخبر أن هناك خطأ في شيء ما ولكنه لا يعلمه. شعور مليء بالخوف والقلق ولا يعلم لهذا أسباباً جلية.

أخذ ينتظر أي الشعورين سينتصر في النهاية فوجد نفسه يفتح الأوراق ويبدأ في القراءة:

***

إلى من يقرأ هذه الأوراق.. احترس فأنت تمسك بيديك سيفاً يمكنه قطع رقبتي أو قطع الحبال الملفوفة حولها.

الصرخة الأولى دائماً ما تكون هي صافرة البدء.

العاشر من أغسطس..

ذلك اليوم الذي أُعلنت إليهم كوافدة جديدة إلى تلك الحياة. محارب جديد قد انضم لتوه إلى الحلبة. جندي في مقدمة الجيش ولا يفقه شيئاً في فنون القتال.

الأجواء في ذلك اليوم كانت كعادة شهر أغسطس. فالشمس فيه ثائرة تحرق من يقرر التحدي وممارسة حياته الطبيعية كأي شهر عادي.

تلك كانت الأجواء بداخل الغرفة. لم أكن موجودة ولكني قرأت ذلك في مذكرات تلك السيدة التي تكون هي الأهم في حياتي على الإطلاق.

تلك المرأة التي تحتضن رضيعتها داخل غرفة في إحدى مستشفيات الولادة. تنظر لها في شفقة وحيرة. تعلم ما سوف يحدث بعد قليل وتتمنى أن يخيب ظنها.

قطع حبال تلك الأفكار والتوقعات البائسة ذلك الصوت الذي صدر من تلك المرأة التي تبدو وأنها قد قطعت شوطاً كبيراً في الحياة فأصبحت مسنة:

- متقلقيش يابنتي وسيبيها على الله. يوسف عاقل ومش هيعمل حاجة.

نظرت لها ولا زالت يداها على راسي لأهدأ وأكف عن البكاء ولكن لا فائدة فقالت في صوت يعتصره الألم:

- يا أمي يوسف مكنش بيهزر وأنا عارفاه كويس.. دي خامس بنت وهو حالف بإني لو مجبتش المره دي الولد هيتجوز غيري وأنا عارفاه عنيد جدًا وهيعمل كده.

وضعت جدتي يداها المليئة بالتجاعيد على يد أمي لتهدأ قليلاً وتطمئنها وقالت محاولة تغيير مسار الحوار:

- قولتلك متقلقيش.. أنا هعرف أقنعه إنه مش ذنبك. وهو بيحبني وهيقتنع.. مقولتليش صحيح هتسميها إيه؟

وبرغم تيقنها بأن جدتي لن تفلح في إقناع أبي بشيء، وأنها تعلم ما سيحدث تمامًا. استجابت لدعوة جدتي في تغيير مسار الحوار وقالت وهي تحاول العثور على تلك الابتسامة التائهة:

- أنا مكنتش متوقعه إنها بنت أصلاً فمختارتش اسم. لكن في حاجة غريبة حصلت وأنا مكنتش فاهماها بس دلوقتي فهمتها.

- حاجة إيه؟

- بابا جالي في المنام وكان ماسك مصحف وبيقرأ آية معينة وعمل يرددها كتير.. والحلم اتكرر كذا مرة بس مكنتش فاهماه.. دلوقتي فهمت.

- آية إيه؟

نظرت إلى أمي وأخذت تمسح على وجهي وهي تقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. (وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ).. صدق الله العظيم.

أخذت تكررها حتى هدأتُ وكففت عن البكاء. فوجئت أمي بذلك وقالت لجدتي بحماس واضح على ملامحها:

- شوفتي يا أمي سكتت إزاي؟ أنا كنت حاسة إن بابا كان يقصدها هي بس مكنتش عاوزة أصدق كدة.

انتقلت إلى جدتي تلك الحماسة لتقول:

- مريم يوسف.. اسم جميل.. ربنا يباركلك فيها يابنتي هي واخواتها.

في تلك الأثناء سمعوا صوت نقر على الباب. هناك أحد يستأذن بالدخول.

بدت علامات الخوف على وجه أمي وقالت وهي تنظر لجدتي:

. ده صوت خبط يوسف! ربنا يستر.

فُتح الباب ليظهر أبي وعلى وجهه مزيج من الخوف والتحمس. متحمس للفرحة التي ينتظرها وأنه أخيرًا سيرزق بالولد، وخائف من أن يغالبه القدر ويخالف ما يتمنى ويرزق ببنت أخرى تتمم الخماسية.

ألقى السلام عليهم وأغلق الباب وما زالت على وجهه علامات التحمس ولكن ما لبث ثوان حتى اختفت تلك العلامات وظهرت علامات الخوف ظاهرة وجلية نتيجة لما رأه من تعبير وجوههم. ساد الصمت قليلاً، لا! بل ساد كثيرًا حتى كسرت جدتي ذلك الصمت لتقول في فرح تظهر عليه علامات الكذب:

. ألف مبروك يا يوسف يا ابني.. ربنا رزقك ببنت زي القمر.

قالت تلك العبارة ثم قامت من مكانها وهي تأخذني من بين ذراعي أمي الذي لم يبدوا على وجهه أية ردة فعل. كان ينظر فقط إلى أمي نظرات عتاب ولوم وكأنه يقول لها أنها قد تحدته فلتتحمل نتيجة ما فعلت.

وقفت جدتي أمامه لتعطيني له ولكنه لم يمد يده ليأخذني وبدا وكأنه لا يسمع ما تقول. وبعد صمت منه دام لفترة طويلة أطلق رصاصة الرحمة وقال في هدوء بالغ:

ـ لو سمحتِ يا حماتي سبينا لوحدنا شوية.

نظرت جدتي لأمي لتجدها تتوسل إليها بعينيها ألا تخرج وتتركها بمفردها ففهمت جدتي ذلك فلم تتحرك جدتي ليقول أبي في غضب ملحوظ:

ـ لو سمحتِ يا حماتي سبينا لوحدنا.

ما كان من جدتي إلا أنها ردتني إلى ذراعي أمي مرة أخرى وخرجت ببطء شديد. لا تريد الخروج ولكنها تعلم أنها لن تقدر على فعل شيء، فخرجت وهي تتوسل إلى الله أن لا يحدث ما تخافه. أخذت ترفع كفيها بالدعوات ودموعها تؤمن على دعائها.

ظل واقفاً في مكانه لدقائق. وهي تتظاهر أنها لا تنظر إليه. مشى بخطوات ثقيلة إلى النافذة وظل صامتًا أيضًا. لم تكن تلك الدقائق تمر بسهولة على أمي على الإطلاق. بل مرت وكأنها قرون وعقود. تتساقط دموعها على خدي وكأن الحياة تبعث لي برسالة أن أول ما تذوقته في الحياة سيكون هو الغذاء الدائم لي في حياتي.

الدموع..

جلس على الكرسي الذي كانت تجلس عليه جدتي وقال وقد وضحت نبرات العتاب واللوم على صوته:

. ليه يا نادية؟! ليه؟

تمالكت أمي بعضاً من القوة وكفت عن البكاء ثم نظرت له وهي تقول بكل قوة:

. ليه إيه؟ أنت بتحاكمني أنا ليه هو أنا ربنا؟ ربنا هو اللي بيرزق يا يوسف مش أنا.

اشتد على ملامحه الغضب أكثر وقال في حدة:

. لا مش ربنا بس أنا كل صحابي متجوزين ومخلفين عندهم ولاد اشمعنا أنا؟ ومتنسيش إن عيلتكوا كلها مبتخلفش غير بنات تحبي أعدهملك؟

تحولت تلك القوة القليلة التي بها إلى ثورة من الغضب فقالت:

. ايه التفكير المتخلف ده.. ده بيبقى رزق ونصيب من عند ربنا.. وبعدين انا عاوزة افهم .. ايه الفرق بين الولد والبنت.. الاتنين واحد متظلمش يا يوسف متظلمش.

تغيرت ملامح الغضب على وجه أبي إلى ملامح دهشة:

. تخلف. بتقولي عليا متخلف. ماشي يا نادية أنتي اللي اخترتي.

قالت وهي لا تزال موقدة بتلك النيران الثورية:

- متهربش من السؤال وقولي إيه الفرق بينهم.

قام من على كرسيه منفعلاً وقد علا صوته حتى كاد أن يسمعه كل من بداخل المستشفى:

- انا مبهربش يا ست هانم بس قوليلي أنا طلعان ميتين أهلي وشقيان عشان مين؟ مين هيسندني ويكبر كل الشغل اللي تعبت فيه ده؟ البنات؟ البنات هيتجوزوا ويجيبوا عيال تشيل اسم اللي هيتجوزوهم. إنما أنا كلها كام سنة ومقدرش اشيل كل ده فوق كتافي. لو مليش عيل يشيل معايا مين هيشيل؟ لو معنديش ضهر اتسند عليه هقع.

اشتدت ثورتها أكثر حتى وصلت ذروتها:

- يا أخي ملعون أبو الشغل على ملعون أبو الفلوس. أنت كل اللي همك الفلوس الفلوس؟ مش همك بناتك اللي من لحمك ودمك؟ مش همك أنا يا يوسف؟ نسيت إحنا عملنا إيه عشان نوصل لبعض ونتجوز؟ كل دي مش أسباب تخليك تعيش عشانها يا يوسف؟

صمت ولم يبدِ أي رد فعل لما قالت فصمتت هي الأخرى ليظهر ذلك الصوت الذي لم ينتبها له أبداً. كنت أصرخ لينتبها أنني أمتلك حق الدفاع عن خطيئة لم أرتكبها ولكنهما لم يسمعا . خرج أبي بعد ما أعلمها بنيته المسبقة بمجرد صمته، لم يقل شيئاً وذهب إلى الباب وخرج.

كان بكاء أمي حينها أشبه بجرس إنذار لي وليتني سمعته فكتمت أنفاسي ورحلت ولكن الحياة ليست عادلة بالقدر الكافي لتعطيك الحرية في الاختيار. حتى إن كان الاختيار في أدنى حقوقك؛ وهي الحياة نفسها.

لا مفر من النهاية التي يحددها لك القدر. فإما أن تموت في حادثة لم تخطر ببالك يوماً أو تموت مستسلماً على فراش الموت لا تملك حتى حق المبارزة!. وكأننا نبعث في هذه الحياة لنتعلم أننا ما كان ينبغي لنا أن نبعث من الأصل. ولكني سأصل للنهاية حتماً. أياً كانت النهاية نهاية عمر أو نهاية تفكير، ولكني سأصل..

سأصل للنهاية حتما..

سأصل لها وحدي..

فتح عينيه ومد يده يتحسس سطح "الكومودينو" ليغلق مصدر ذلك الصوت المزعج، أغلق المنبه وظل يكمل فتح عينيه مستدركًا ما حوله في بطء شديد، وجد نفسه قد أرهقه التعب ليلة أمس حتى نسي أن يبدل ملابسه. شعر وكأنما هناك شيئًا في قبضة يده اليسرى فنظر إليها فإذا بها تلك الأوراق التي كان يقرأها قبل أن ينام. ظل ينظر إليها للحظات حتى دخلت منى الغرفة متجهة إلى النافذة تفتح الستار لتسمح للشمس أن تنشر نورها داخل الغرفة معلنة عن بداية يوم جديد.

اعتدل جالسًا، لازال يستدرك ما كان يقرأ قبل أن ينام ولا زالت تلك المشاعر المتضاربة تتصارع بداخله. قطعت منى ذلك الصراع قائلة:

- إيه ده يا احمد أنت نمت بهدومك أمبارح؟!

نظر لها وهو يضع يده على عينيه ليتجنب الضوء الذي لا يحبه وقال بغضب:

- يا ماما قولتلك مبحبش النور ده بيتعبلي عيني.

لم تعطهِ علامة بأنها رأت غضبه وتوجهت إلى الباب وهي تغلقه بصرامة:

- يلا قوم بطل دلع .

نظر في هاتفه فإذا بها الثامنة والربع فعلم أنه لا يمتلك الكثير من الوقت حتى يصل في ميعاده المفترض في الجريدة، فهو لا يريد أن يسمع الموشحات التوبيخية اليومية من رئيس التحرير. ذلك الرجل الذي يحبه كثيراً ولكن لم تعد تروق له الحالة المضطربة التي وصل إليها "أحمد" في الفترة الأخيرة. فقد كان منظماً في عمله وكأن الساعة التاسعة دائماً ما تنتظر أن يخطو "أحمد" بقدميه على أعتاب الجريدة حتى تدق معلنة وصولها هي الأخرى.

على باب العمارة يجلس "عم عبده" يتحدث في الهاتف كالعادة بنفس طبقات الصوت العالية التي أزعجت "أحمد" وجعلته يهز رأسه يمينًا ويساراً مستنكراً؛ ثم نظر إليه دون أن يلقِ السلام واكتفى فقط برفع يده ليجيب الأخر بترحيب مبالغ فيه كأنه لم يره منذ شهور.

إنها التاسعة إلا ربع، ولذلك لم يعد أمامه أن يختار بين أن يرتاد "تاكسي" أو أن يأخذ المترو ككل يوم. فليس أمامه سوى "التاكسي" لكي يصل في ميعاده أو بالأحرى أن يقلل نسبة التوبيخ التي سيقابلها. أخذ ينتظر قدوم أحدهم متوسماً أن يقرأ في ملامحه أنه لا يتحدث كثيراً كسائر من هم على شاكلته، وكان أول من أقبل عليه رجلٌ يبدو عليه كبر السن بعض الشيء فأوقفه.

سيارة من طراز قديم أهم ما فيها ذلك "الكاسيت" الذي بالكاد يشغل إذاعة القران الكريم؛ يقودها رجل يرتدي قبعة يشتهر بها أجيال الخمسينيات "زمن تنحى الطربوش"، وقبل أن ينطق "أحمد" ليخبره أين سيذهب باغته الرجل على غير توقع:

- ازيك يا أحمد يا ابني؟

بُهت "أحمد" لثوان مما قاله ذلك العجوز، لا يعلم كيف علم اسمه وهو لا يظن أنه قد رآه من قبل. نظر للرجل ليجده مبتسماً وتشير ملامحه إلى عفويته وأنه يعرفه تمام المعرفة فلم يجد "أحمد" سوى أن يبتسم ويسأله في خجل شديد:

- أنا الحمد لله كويس.. حضرتك عامل إيه؟

فأجابه الرجل وما تزال ابتسامته تزين تجاعيد وجهه الأبيض:

- الحمد لله يا ابني نحمده ونشكره على كل حال.

ظل "أحمد" متردداً بعض الشيء. يريد أن يسأله من أين عرفه ذلك العجوز وهناك شيئاً آخر بداخله يحذره من ذلك السؤال خوفاً من شيء لا يعلمه أيضاً. ظل هكذا حتى قال العجوز:

- تحب أوصلك فين يا ابني؟

نفض رأسه وشعر بأنه كان مغيب للحظات ونظر لذلك العجوز الذي ينتظر إجابته، وقال في حالة من عدم التركيز والارتباك:

- بتقول حاجه يا والدي؟

تعجب العجوز مما قال، وكرر ما قال في تعجب تام:

- أيوة يا أستاذ سألتك هنروح فين من خمس دقايق وأنت مردتش. عمال ألف لحد ما تفتكر. . أنت كويس يا ابني؟

أخذ "أحمد" يحدق في وجه ذلك الرجل وهو لا يفهم شيئًا، ولكن ملامح الغضب التي ارتسمت على وجه ذلك العجوز فجأة جعلته يجيب باحثًا عن قليل من التركيز:

- المهندسين. . المهندسين يا والدي.

تصاعدت نغمات هاتفه لتنتشله من كل ما يحدث. أخذ ينظر إلى الهاتف وهو يستعيد تركيزه شيئًا فشيء. ضغط على زر الإجابة ولم يتكلم كعادته حتى سمع صوت "علي" يأتي من الناحية الأخرى وقد بدا متذمرًا بعض الشيء:

- أنت فين يا ابني؟! أنا مش قولتلك متتأخرش علشان أستاذ علاء ميتخانقش معاك زي كل مرة.

وجد "أحمد" أن الفرصة قد سنحت له وأن "علي" قد أشعل فتيل غضبه بدون قصد فقال في غضب عارم:

- يا عم قوله متنيل على عين أهلي وجاي أهو.. هعمل إيه يعني هركب جناحات وأطير.

لم يرد "علي" وظل صامتًا لثوان لا يقول شيئًا. لا يعلم ما سر ذلك الغضب العارم الذي أصاب "أحمد" ولكن قال في هدوء تام:

- ماشي يا أحمد.. تيجي بالسلامة.

قالها "علي" ثم أغلق الاتصال ليجد "أحمد" نفسه نادمًا على ما فعل، لا يعلم لماذا غضب وانفجر فيه بتلك الطريقة ولكن أعطى لنفسه فرصة ليصحح ما أخطأ؛ فلقد قرر أن يصالحه بالطريقة التي يحبها "علي"؛ فهو "علي" يعشق الأكل كثيراً. لا يوجد هناك شيء أو شخص يتجرأ على تخييره بينه والأكل؛ فالإجابة محسومة قبل السؤال.

"علي" من قرية صغيرة عاش فيها حتى قرر أن يدرس بكلية الإعلام في جامعة القاهرة فأصبح من بعدها من سكان الحضر. يَعتبر "أحمد" وأمه كعائلته التي تركها في قريته. يحب "لمى" كثيراً ويعتبرها هي الوحيدة التي تأتي ثم يأتي بعدها ما يأتي. لم يُصرح لها من قبل ولم يفكر في هذا أبدًا، يعلم أنه إذا سمح للسانه أن يبوح بما يمليه عليه قلبه ستنفجر توابيت الغضب في وجهه من الجميع؛ عائلته المتدينة

والملتزمة، وأستاذ "مجدي" والد "لمى" الذي يحبه كما يحب "أحمد" وكذلك "لمى" لا يريد أن يخسرها حتى مع علمه أنه لن يفز بها أبدًا، ويأتي في مقدمة تلك القائمة صديقة المقرب "أحمد" فهو لا يريد أن يضحي بعلاقتهم لأي سبب كان، ومن أجل كل تلك الأسباب قرر أن يظل هكذا إلى حين أن تسقط المعجزة عليه فيصبح نبيًا يدعو إلى توحيد القلوب مهما اختلفت أديانها.

أشار للعجوز أن يقف وأعطاه ما طلبه ونزل مسرعًا ثم ارتاد المصعد ليقف في الطابق الثالث حيث يقع مكتبه. غرفة بها ثلاثة مكاتب وعلى كل مكتب حاسوب وبجانبه هاتف. لم يكن بالغرفة سوى "علي" الذي كان يتحدث في الهاتف دون أن ينظر له كأنه لم يعلم بحضوره من الأصل، همَّ أن يذهب إلى مكتبه ليصالحه ولكن رن جرس ذلك الهاتف الذي يوجد على مكتبه فذهب إليه ورفع السماعة ليجد إعصاراً من الغضب ينفجر فيه:

- أنت فين يا أستاذ أحمد؟! أنا مش قايلك مليون مرة متتأخرش؟

وضع حقيبته على المكتب وهو يبعد السماعة عن أذنيه ليتجنب ذلك الصوت العالي ويرد في هدوء تام:

- معلش يا أستاذ علاء.. الدنيا كانت زحمه شوية.

قاطعه ذلك الإعصار مجددًا:

ـ هو أنت جاي يعني من كوكب تاني؟ ما كل الناس هنا جايه في نفس المواصلات وموجودة هنا في معادها أشمعنا أنت؟ والمقال بتاع سعاتك فين مسلمتهوش ليه لحد دلوقتي؟

لم يحرك ذلك الإعصار سكونه وهدوءه فأجاب وكأنه لا يسمع قوافل التوبيخ التي تصب في أذنيه:

ـ هجيبه وأكون عند حضرتك دلوقتي.. مع السلامة.

وضع السماعة جانب الهاتف كي لا يرن مرة أخرى ثم ذهب إلى "علي" الذي أدار وجهه بعدما أنهى المكالمة وكأنه لم يكن منتبهاً معه. وقف أمام مكتبه دون أن يتكلم وأخذ ينظر إليه وهو يبتسم وبرغم أن "علي" لم يكن ينظر إليه ولكنه يعلم أنه يقف أمامه، ابتسم أيضاً دون أن يتكلما او ينطقا بشيء.

أخذ "أحمد" ورقة من حقيبته ثم توجه إلى مكتب أستاذ "علاء الشيخ" رئيس التحرير الذي يقع في الطابق الخامس. مروراً بجميع غرف ومكاتب الدور الخامس؛ يمشي "أحمد" برزانته المعهودة وهو يمسك بيده ورقة وأخذ يقرأ ويراجع ما فيها حتى دنى من غرفة مكتوب على بابها "رئيس التحرير" فنقر على الباب ودخل.

مكتب مصمم بأحدث طراز عليه حاسوب محمول ويجلس خلفه رجل خمسيني يرتدي نظارة عريضة تحتل معظم وجهه تقريباً. ظل

واقفًا بجانب الباب ينظر لتلك العينين التي تقع خلف تلك الزجاجتين السميكتين منتظراً منهما أن تشيرا له فيدخل، وحدث.

وضع "أحمد" الورقة بجانب الحاسوب ولكن بدا "علاء" غير مهتم أو كأنه لم يره من الأصل. وبعد دقائق صمت رفع "علاء" عينيه من الحاسوب ونظر "لأحمد" قليلاً ثم أمسك الورقة وبدأ يقرأ ما فيها:

*" والدي العزيز..*

*تحية طيبة وبعد..*

*أشكرك على رحيلك.. وأُحيّ صمودك أمام المرض طيلة فترة لقائنا. أُهنئك أيضًا على اكتمال عامك الستين. وأُقرأكَ السلامُ من جميع من أقروا بأنك كنت رجلاً صالحًا رُغم ما فعلته بكَ الحياة. قد أخطأتَ في اختيارك لبعض الطرق، ولكنك أصبتَ بصدق عندما اخترت لي أمًا كانت كالسوط الحاني يُقومني إن أخطأت وتكوّن لي الدفء إذا ذاعت برودة الأقدارَ. لا يعلمون لماذا أسخط على جميع من يُهون التدخين. لا يعلمون أن السيجارة كانت تضحك وقت بكائنا عليك. أتمنى لو كنتَ حيًا فتخبرهم أن لا يفعلوا ذلك فتنتهي رحلتهم تاركين خلفهم من يكتبون الرسائل إليهم مثلي. يقولون إني أشبهكَ في صفاتك الخلقيةِ والخُلقية. وبأني أمثلُ نسخةً مصغرةً منك. أتمنى أن*

تعود وتخبرهم أنك كنت قصيراً وقد ورثت تلك الصفة منك. يدّعون أني أمتلك موهبة في الكتابة ولا يعلمون أيضًا أنها إن وُجدت فستكون أنت المُسبب لها. أحفظ كثيرًا من قصائدك العظيمة. كنتُ أتمنى أن تعاقبني لجلوسي طيلة يومي أمام ذلك الوباء المسمى "الفيس بوك" ولكنك رحلت قبل ظهوره بأعوام. أتمنى أن يأتي السابع من يناير المقبل وتكون حينها قد أتممت عامك العشرين من الرحيل؛ وأكون حينها بجوارك وأطفئ نار شوقي إليك. لو كنت بيننا كنتُ سأحكي لك ما فعلته لي عائلتك حتى أصبحت رجلاً يُعتمد عليه. فبدونهم لا أعتقد أني كنت سأكتب لك الآن. وكنتُ سأروي لك أيضًا قصصي ورواياتي وقصائدي علّك تعتقد أنك من كتبتها فأسلوبنا متطابقٌ إلى حد كبير. وكيف لا وأنت كنت دائمًا لي المدرسة التي أتعلم منها ولا تعلمَ.

لك مني أطيب السلام وأصدقه."

وضع النظارة على المكتب ووضع الورقة بجانبها وظل صامتًا، ولكن "أحمد" رأى ما تقوله عيناه وصدقت رؤيته ليقول "علاء" في صوت قد بارزه البكاء ولكنه لم ينتصر عليه:

- الله يرحمه.. بص يا أحمد.. والدك الله يرحمه كان صديقي وأكتر من أخويا.. وعمك مجدي شاهد على كده.. إحنا التلاته بدأنا المشوار سوا.. أينعم هما اشتغلوا محامين إنما أنا محبتش المجال ده حتى لو

كنت ضيعت فيه أربع سنين من عمري أدرس في كليه مبحبهاش . . مبتش غير إني أكون كاتب وصحفي والحمد لله قدرت أعمل كده . . والدك على فكرة كان بيكتب أحسن مني بس مرضيش يسمع كلامي . . وأنت واخد منه الموهبة دي حتى نفس الأسلوب تقريبًا . لكن برضو يؤسفني أقولك إن المقال ده مش هينفع ينزل .

تعجب "أحمد" مما قال ليكمل "علاء" وهو يقوم من على كرسيه :

- أكيد مش هينفع أنزل رسالتك لوالدك اللي محدش هيهتم يقراها غير اللي يعرفوك شخصيًا بس . . ده اسمه عندنا كده فقر في الأفكار . وعشان عارف حجم موهبتك هسيبك فترة كده تعيد فيها أفكارك مرة تانية وترجع أحمد اللي الناس بتستنى تقراله دايمًا . . وعلى فكره إن كنت بشد عليك شوية لما ألاقيك بتمشي غلط . . فده عشان بعزك زي ولادي بالظبط .

قاطعه "أحمد" بحدة غاضبًا :

- يعني إيه بمشي غلط يا أستاذ علاء؟

سار "علاء" حتى جلس بالكرسي المقابل للكرسي الذي يجلس عليه "أحمد" وأردف :

- يعني مبقتش تيجي في ميعادك زي الأول وبقيت تتأخر في تسليم الشغل اللي المفروض تسلمه . . وكمان زمايلك بيقولوا إنهم بيسلموا عليك وأنت مبتردش عليهم . . تقدر تفهمني ليه التغييرات دي كلها؟! أنت مكنتش كده يا أحمد.

سارت علامات الدهشة ترتسم على وجه "أحمد" وأصبح في ذهول تام واخذ يعيد ما قاله علاء:

- بيسلموا عليا ومبردش عليهم؟! أنا؟! إزاي؟!

حرك "علاء" كتفيه مشيراً أنه لا يعلم إجابة لسؤال لا يعلم إجابته غيره. فهو معروف بتودده مع الجميع فكيف يفعل ذلك!. أخذ يتذكر أنه فعل شيئًا يشبه ذلك الأمر ولكن لم يتذكر شيئًا حتى قاطع تفكيره صوت "علاء" الذي بدا مبتسماً وهذه من المرات القليلة:

- أتمنى يا أحمد تراجع نفسك في اللغبطة اللي حصلت في الفترة الأخيرة دي وأنا واثق إنك هترجع أحسن من الأول . . أنا زي والدك فمتفتكرش إني هسمح بأني أسيبك تكمل كده على طول . . يلا قوم على مكتبك.

قام "أحمد" من مكانه حتى دنى من الباب ليخرج ليردف "علاء":

- اه على فكرة . . الكلام اللي أنت كاتبه ده حلو جدًا . . أتمنى يوصل له.

ابتسم "أحمد" ابتسامة مصطنعة وهز رأسه مجيبًا ثم انصرف في هدوء متجهًا إلى مكتبه حيث وجد "علي" غير موجود بالمكتب فأخرج من حقيبته الأوراق التي كان يقرأها ليلة أمس، أخذ يقلب الصفحات حتى وصل إلى حيث وقف وبدأ يقرأ:

كانت تلك اللحظات الأولى هي السبب الرئيسي فيما أنا فيه الآن. فلم توافق أمي على أن تكون زوجة ثانية ولم يخضع أبي لقلبه وجعل عقله هو المحرك الرئيسي له. لم يتنازل عن عناده. ولم يرق لها ذلك الوضع الذي لا يرضي جميع نسل حواء فقررا أن ينفصلا. حدث ذلك ولم أكمل شهري الأول بعد. منذ ذلك الحين وأصبحت مصدر شؤم وشخصاً غير مرغوب فيه. ولم تكن أمي تقل في العناد عن أبي فقررت أن تعود إلى عملها مرة أخرى. وحدث. كانت تعمل بمكتب للمحاماة مع زميليها في الدراسة فعادت إليه ثانيةً.

أخذت تُنهك نفسها في العمل لتنسى ما حدث ولكنها كانت تتذكر ذلك بمجرد رؤيتي. لم تختلف معاملة إخوتي عن معاملتها لي كثيرًا بل كانوا أسوأ. كنت دائمًا ألعب دور الجاني رغم أنني لم أكن طرفًا في القضية من الأساس ولكنهم لم يروا ذلك أبدًا. دائمًا ما كانوا يخطئون وأحاكم أنا، دائما ما يذنبون وأدخل أنا النار، واستمرت الحياة هكذا.

لم أكن أتقاضى أي مال من أمي بحجة أن هناك ما هو أهم مني. متطلبات البيت التي لا تنتهي، واخوتي أيضًا. أما أنا التقط فقط ما يتبقى منهم من أموال.

طلبت منها مرارًا وتكرارًا أن تتقبل الأموال التي يرسلها إلينا أبي ولا تردها لأننا أولى بها ومن حقوقنا أيضًا ولكنها كانت تنهال عليّ بوابل من

التوبيخ وتذكرني بجريمتي الكبرى وخطيئتي التي لم ولن تغتفر أبداً. لم أغفرها لنفسي أيضاً. لن أسامح نفسي أني أتيت الى تلك الحياة ولكن لسوء الحظ أنني لم أكن مخيرة حينها. لم أكن مخيرة من الأصل.

ولكي أخفف العبء عنها، الذي لم أكن جزءاً منه أبداً. قررت أن أعمل إلى جانب دراستي. وكما توقعت. فقد وافقت فور طلبي منها أن أعمل. لم يكن أمامي سوى القراءة. قرأت كل شيء. حتى شعرت بأنني سأنفجر إذا لم أخرج ما في صدري من صراعات فكتبت. وظللت أكتب حتى أحببت الكتابة وأصبح حلمي أن التحق بكلية الإعلام. وبعد عناء طويل حققت ذلك الحلم. سنوات من التعب المتواصل وعدم الراحة أبداً. سنوات من البكاء والألم الذي لم ادع أحداً ليراهم أبداً.

أصبحت طالبة بكيلة الإعلام. وبعد سنوات أخرى لم تختلف عن أخواتها السالفة تخرجت وأصبحت صحفية في جريدة مشهورة. ومن هنا بدأ كل شيء ولم ينتهي حتى الآن.

*****

السلطة الرابعة؛ منبر من لا منبر له. فقد توافقت مفاهيم تلك السلطة مع معتقداتي وإيماني بالبحث عن المصدر الأصلي لكل ما يحدث.

لم أكن يومًا مؤمنة بما أسمع، أؤمن بما أرى فقط، فلذلك لم يقتصر دوري كصحفية على الكتابة فقط، بل عشقت العمل الميداني فاصبحت من أنشط صحفي الجريدة، وأصبحت لدي حاسة سادسة أشم بها الأخبار وهي ما زالت في مهدها قبل أن تنكشف للعامة. وصار لدي مصادري الخاصة وصرت ذات قلم مسموع.

وفي يوم ما جاءتني إشارة من أحد مصادري الموثوق به تفيد بأن سكرتيرة شخص مهم في الدولة ويمتلك كرسيًا من الكراسي صاحبة اتخاذ القرارات موجودة داخل غرفة أحد أهم رجال الأعمال في فندق "هيلتون رمسيس" بوسط المدينة. أخذت أفكر كيف سأعرف ما يدور في هذه الغرفة؟ فحتمًا هناك سبب لذلك وإن ذلك السبب أتوقع أنه يكون مهمًا جدًا وغالبًا ستكون ضربة الموسم.

لم أفكر كثيرًا حتى وجدت فكرة جيدة. فاتصلت بزميلي في الجريدة وصديقي المقرب "حسام" ليحضر لي كاميرا لتصوير الفيديو وبعد تردد منه وافق وأخبرته أن يكون موجودًا تحت بيتي في غضون عشر دقائق وبالفعل وصل في وقته المحدد. وانطلقنا.

- إنتي عارفة هما في غرفة كام؟ وعارفة هتعملي إيه ولا أجي معاكي؟

قالها حسام وهو ينظر إليّ بقلق ملحوظ فرددت عليه بثقة تخفي خوفًا شديدًا:

- متقلقش.. اللي قالي الخبر ده مستنيني جوه وهو هيظبط كل حاجة.

وبنفس القلق الملحوظ أردف قائلاً:

- وأنتي واثقة فيه يعني للدرجة دي؟

وضعت يدي على مقبض الباب وقلت له وقد هممت بالنزول:

- واثقة فيه جداً متقلقش. خليك أنت بس هنا وأنا هخلص وأجي.

ابتسم وهو يبعث إلي بابتسامة مصطنعة ليخفي قلقه فابتسمت مثلها أيضاً ونزلت.

****

هيلتون رمسيس، ذلك الفندق الذي يعانق النيل ويقع في مكان رائع جداً. في وسط المدينة.

رأيته كما أراه كل مرة. يبدو شامخاً كعادته ولكن هذه المرة لم يكن لدي وقت لمشاهدته كالعادة فدخلت وسألت على المطعم الموجود بالداخل كما أخبرني ذلك المصدر. دخلت المطعم وتوجهت إليه. فكان يضع فاتورة على إحدى الطاولات فجلست على إحدى الطاولات التي تجاور تلك الطاولة ليأتي إلي بـ "المنيو" وبداخله ورقة مكتوب فيها:

الدور ١٨ غرفة ٧٣١.

نظرت فيها ثم وضعتها في حقيبتي دون أن يراني أحد ثم أشرت له ليأتي:

* أأمريني يا فندم.

قالها وهو يبتسم كأنه لا يعرفني. فرددت بكل عنجهية:

* ال W. C فين لو سمحت؟

فأشار إلى مكانه وانصرف. فأخذت حقيبتي وذهبت إلى هناك ودخلت لأجد فتاة تقف تنظر إليّ كأنها تعرفني وقالت:

- مريم؟

ترددت قليلاً ثم هززت رأسي إيجاباً لتُعطيني حقيبة بيديها قائلة:

- أدخلي غيري هدومك بسرعة قبل ما حد يدخل وياخد باله.

كانت الحقيبة بها ملابس للعاملين بخدمة الغرف ففعلت ما قالته لي وخرجنا في هدوء وارتدنا المصعد حتى وصلنا للطابق المكتوب بالورقة لتقول وهي تنظر حولها:

- خليكي هنا.. هجيب الحاجة وأجي.

هززت رأسي بالإيجاب أيضًا لتأتي بعد قليل بعربة تحمل جميع مستحضرات تنظيف الغرف. ثم أشارت إلى الغرفة المكتوبة بالورقة وهي تقول:

.هستناكي هنا.. متتأخريش.

أخذت أجر تلك الناقلة ثم نقرت على باب الغرفة التي أشارت إليه ليأتي صوت من الداخل يسأل من بالخارج فأخبرته بأنني من خدمة الغرف؛ ففتح رجل ذو قامة طويلة يرتدي قميصًا حريريًا مفتوح نصف أزراره لتظهر على صدره سلسة ذهبية. يبدو وسيمًا أيضًا. أشار لي بالدخول لأجد امرأة تقف أمام النافذة وهي تدخن. وبرغم من أنها كانت تعطيني ظهرها ولكن بدت وأنها امرأة فائقة الجمال ذات جسد رشيق.

أخذت أرتب الغرفة وأنا أبحث عن مكان أضع فيه الكاميرا؛ فوجدته، ووضعتها وتأكدت من أني قد فعّلتها قبل أن أدخل وأنها بدأت في التسجيل بالفعل ثم انصرفت دون أن يلاحظا أي شيء ودون أن أرى وجه تلك المرأة ولكني أعلمها جيدًا.

وجدت تلك الفتاة تقف خارجًا وقد بدا التوتر والقلق عليها كثيرًا وما أن رأتني حتى هدأت ثم أخذتني وتوجهنا إلى الغرفة المخصصة للعاملين بخدمة الغرف ننتظر خروجها.

"أنت يا ابني أنا بكلمك"

نفض "أحمد" رأسه ليجد "علي" يصيح بهذه العبارة وهو يقف أمامه وملامح التعجب تنتاب ملامحه. أغلق الأوراق رغمًا عنه فقد وصل فضوله إلى أعلى درجاته ليعرف ماذا سيحدث بعد ذلك مع أنه لم ترق له ضعف لغة الكتابة الخالية من استثار القلوب من سكناتها والاعتماد على السرد فقط ولكنه سرعان ما ابتسم في استنكار لأنه يعلم أن هذه الأوراق لم تكتب بعناية كاتب روائي مثله وإنما كتبت لسرد أحداث فقط، ثم نظر "لعلي" الذي ما زال متعجبًا، وقال في شرود تام:

- إيه يا علي في إيه؟!

مد "علي" يديه إلى الأوراق ليأخذها ويقرأ ما فيها ليجد "أحمد" قد تغيرت ملامحه بعلامات تنبئ بقدوم حالة من الغضب العارم فأبعد "علي" يديه وما زالت علامات التعجب على وجهه قائلاً:

- إيه الورق ده! شكله مش غريب عليا.

- سيبك من الورق. قولي في إيه؟

- مفيش حاجة يا ابني أنا واقف قدامك بقالي كتير وبنده عليك وأكلمك وأنت مش معايا.

أخذ "أحمد" الأوراق ووضعها في حقيبته وقال وهو يحاول تغيير موضوع الكلام:

- معلش كنت مركز شويه بس. . المهم قولي عملت إيه في المهرجان بتاع أمبارح ده؟

عادت علامات التعجب والدهشة مرة أخرى "لعلي" ليقول:

- يا ابني ما أنا مكلمك أمبارح وقايلك.

ابتسم "أحمد" في هدوء وقال وهو يخرج سيجارة ويشعلها:

- عارف يا عم. . بس عاوزك تحكيلي بالتفصيل يعني.

انتقلت تلك الابتسامة التي تعلو وجه "أحمد" إلى "علي" ليأخذ السيجارة التي يمد يده بها ويذهب إلى مكتبه ثم يشعلها قائلاً:

- مفيش زي ما حكيتلك كده. . وعلى فكرة كان في الراجل اللي أنت مبتحبهوش ده. . مش عارف ليه؟

- راجل مين؟

- اللي هو اسمه شريف الشيمي ده باين.

بصق "أحمد" على يساره وهو يقول:

- راجل ابن وسخة متجبليش سيرته يا عم.

ابتسم "علي" أكثر وهو يردف:

- إيه يا عم هو الراجل ده لا مؤاخذة عمل فيك حاجة وأنت مكسوف تقولي ولا إيه؟

ضحك "أحمد" مستنكراً ما قاله علي ثم قال في لهجة حادة:

- لا يا ظريف.. بس ده من الشلة الوسخة اللي قرفانا في عيشتنا.. غير الموضوع ده يا عم مش طالبة حرقة دم.

- خلاص يا عم قلبك أبيض.. بس سيبك أنت.. عملت حتة حوار مع دكتور علا دي إنما إيه حلو فشخ وعجب أستاذ علاء كمان.. بس هي بأمانه شخصية محترمة جداً وتحب تتكلم معاها كده.

- أكيد يا ابني ما أنا عارف.. وبعيد عن أني بحب الطب النفسي وأحب أقرأ فيه بس هي شخصياً أنا بحبها وبحترمها جداً ونفسي أقابلها والله.

- طيب يا عم سيبلي أنا الحوار ده هظبطهولك.

قالها "علي" وهو ينظر في حافظة نقوده ويطمأن على وجود الكارت الذي أعطته له علا وشرد لثوان وهو يفكر في شيء ما لينتبه بعد دقائق ليجد "أحمد" قد أعد حقيبته ووقف على أعتاب باب الغرفة وقال وهو يهم بالانصراف:

- لو أستاذ علاء سأل عليا قوله تعبان شويه وروح. أنا رايح الكافيه ابقى خلص وتعلالي.

لم يترك له فرصة ليرد وانصرف دون أن ينتظر رده وسط أنظار "علي" الممزوجة بالقلق وعدم الاطمئنان. توجه إلى الكافيه وهذه من

المرات القليلة التي يذهب فيه إليه في الصباح. ربما تكون الشمس هي ما تجعل هذا الاختلاف ظاهراً جليًا. فهي تتخلل جميع الأرجاء عبر النوافذ الزجاجية؛ مما تفقد المكان رونقه وجماله الذي يمتاز بهما ليلاً.

وربما تكون هي وجهة نظره فقط فهو لا يحب الشمس البتة ويكرهها ولا يحب مجالستها أبدًا. يتهرب منها كهروب العشق من بين أظافر الخوف من المستقبل؛ فهو كائن ليلي. يتغذى على القهوة، والقهوة لا تحب الشمس. كم هو جميل أن تصاحب القمر وتتخذه خليلاً في تلك الأوقات التي يهجع الناس فيها إلى سرائرهم وأحلامهم الوردية؛ فنادراً ما تجد الليل يعج بالأحداث والفوضى. فهو هادئ كشاطئ يجذب إليه كل من لا يفقهون طباعه التي لن تتركه أبدًا، ولكنه لم يكترث بكل ذلك وجلس في نفس المكان الذي يجلس فيه مصوبًا رأسه تجاه ذلك الشاب الذي لم يجده ينظر له ككل مرة.

أخرج الأوراق من حقيبته ليجد القهوة قد أُحضرت ووضعت بجانبه دون أن يطلب. فلقد علم جميع العاملين في المكان أنه يطلب نفس الطلب كل يوم فتعودوا على ذلك وأصبحوا يحضرونها فور رؤيته. أخرج سيجارة وأشعلها وبدأ يبحث عن الصفحة التي وصل إليها في القراءة وهو يأمل أن يكون الأسلوب مغايراً فيستمتع بلغة قوية وسليمة تنبغي لصحفية كما تقول هي في ورقها. وجد الجزء الذي وقف عنده فرجع بظهره حتى أسند رأسه على (ظهر) الكرسي وبدأ يقرأ:

أخذ العقرب يتحرك ببطء شديد. ما أسوأ الانتظار لوقت تعلمه، ولكن الأسوأ حقًا هو الانتظار لوقت لا تعلمه. لم تترك عيناي مراقبة العقربين وهما يتحركان بصعوبة كأنما قد لدغوا حية فأصابتهم بسمها. ولكن هيهات ما اعترفوا بأنهم قد جاوزوا ساعتين من وقت ما بدأت أنظر إليهم.

نظرت إلى تلك الفتاة التي لا تقل توترًا عما أنا فيه ولكن ذلك الوقت قد سنح لي أن أسألها لماذا تساعدني هكذا وعلمت منها أنها لا تعلم شيئًا عن ما أفعل ولكن عشقها لهذا الشاب يدفعها لفعل ما يريده دون أن تسأل لما. فهي تعلم أنه لن يجعلها تفعل شيئًا خاطئًا فهو يحبها أيضًا. ولم أسألها لماذا هو يساعدني لأني أعلم الإجابة تمام العلم؛ فهو شاب قد عانى كثيرًا حتى يصل إلى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية وعانى أكثر ليتخرج فيها ليجد نفسه في النهاية جرسون في إحدى الفنادق الشهيرة. فأصبح يريد الانتقام ممن سولت لهم نفسهم أن يجعلوا أقصى ما يطمع به الشباب هو أهون حقوقهم. يطمحون فقط إلى أخذ حقوقهم الهينة التي اعتبرها هؤلاء السفكة ليست من حقوقهم.

دقائق لم تكن بالقليلة حتى هرعت تلك الفتاة إلى الهاتف الموجود بالغرفة التي يجلسون فيها لتجد ذلك الشاب يخبرها أن الغرفة المستهدفة أصبحت فارغة الآن. فهم الآن في المطعم ولذا قد وجب علينا الإسراع إلى الغرفة لأجلب الكاميرا وتنتهي المهمة أخيرًا.

ذهبت الى الغرفة وحدي وأخذت الكاميرا بالفعل وهممت بالخروج، ولكن وجدت الهاتف الموجود يرن فجأة. لم أكن أعلم بأن ذلك الشاب يريد أن يخبرني أن الرجل الذي فعلنا كل ذلك من أجل أن نعلم ماذا يريد أن يفعل قد ترك الطعم واستقل المصعد ويبدو أنه قد نسى شيئاً بالغرفة. ولكنني لم أكن أعلم ذلك فلم أرد وخطرت ببالي فكرة حينها ليتها لم تأتي أبداً. فقد وجدت أنها فرصة لن تتكرر. وأخذت أبحث هنا وهناك عن أي ورقة ترشدني الى شيء فوضعت الكاميرا على السرير لأبحث بحرية. ولكن أوقفني فجاة صوت أقدام يبدو أنها قريبة من باب الغرفة.

لم يكن أمامي سوى أن أتظاهر أني أنظف الغرفة ولكني لم أتذكر أبداً أني قد نسيت الكاميرا على السرير فالتقطتها مسرعة ووضعتها داخل ملابسي ولكن قد فات الأوان. فلقد رآها وثار غاضباً:

.انتي بتعملي إيه هنا؟ وإيه اللي مخبياه في هدومك ده؟

لم أتحرك ولم أنطق بكلمة. وقفت فقط أنظر إليه في خوف شديد فهم بالهجوم عليّ بكل ما أوتي من قوة حتى تأكد من أنها كاميرا. فثار أكثر ولكن تحدث الأشياء دائماً عندما لا نتوقع حدوثها. فقد وصل ذلك الشاب في وقت مثالي ليضربه على مؤخرة رأسه فيسقط الرجل مغشياً عليه. لذنا بالفرار وأغلقنا الباب خلفنا وركبنا المصعد لنجد تلك الفتاة تنتظرنا لينهرها ذلك الشاب:

- أنتِ بتعملي إيه هنا روحي أقعدي مكانك عشان لو حد طلبك تكوني موجودة. أنتِ متعرفيش حاجة عنها ومشوفتيهاش أصلاً.. ماشي.. وأنا هروح أخرجها من الباب اللي ورا وهرجع المطعم بسرعة عشان محدش يحس بحاجة.

هزت الفتاة رأسها في خضوع تام وقلق واضح أيضًا فخرجت من المصعد لننزل نحن إلى الباب الخلفي للفندق. نظرتُ إليه وأنا لا أجد شيئًا أقوله ويعجز لساني عن إيجاد كلمات شكر تليق بما فعل ولكنه لم يعطني فرصة وقال:

- خلي بالك من نفسك يا أستاذة مريم وإن شاء الله ربنا هيقدرك على كشف الحقيقة يمكن حاجه تتغير..

قاطعته وأنا أهز راسي موافقة:

- متقلقش إن شاء الله كل حاجة هتبقي أحسن وأنا مش عارفة فعلا أشكرك إزاي.

- متشكرنيش ويلا أتحركي من هنا عشان وجودك هنا خطر.

قالها الشاب وانصرف مسرعًا فخرجتُ واتجهت للمكان الذي كان يقف فيه حسام بقربة من الباب الرئيسي وما إن ركبت السيارة حتى انطلق مسرعًا. كان شاحب اللون قليلاً ويبدو أن الانتظار قد أصابه بكثير من الخوف

الميت ولكن سرعان ما قل ذلك الفزع حين رآني، فقال وهو يبحث عن هدوئه:

. إيه اللي أخرك كل ده؟ أنا كنت هدخلك دلوقتي لو مكنتيش خرجتي.

لم أرد حينها. فقد ظللت لثوان أتنفس الصعداء وأبحث عن المزيد من أكسجين الطمأنينة والتأكد من أنني قد أتممت مهمتي وما زلت على قيد الحياة. كان لدي شعور بالفخر لا أعرف سببه فإنني لا أدري ما يوجد بذلك الفيديو ولكنني على يقين تام أن هذا الفيديو سيكون بمثابة الفتيل الذي سيشعل نيرانًا لن تنطفئ قبل أن تأكل في طريقها كل شيء فاسد.

الفخر بإشعال فضيحة ما هو إلا عار على من يشعر به ولكن إذا كانت الفضيحة تخص من استحلوا لحومنا ودماءنا وجعلونا فقراء رغم غنانا فالفضيحة تكون شرف لمن يفتعلها. أملك بين يداي مستند أشعر أن حياتي لن تكون كما كانت عليه قبله. كل ذلك كان يجول في خاطري قبل أن يعيد حسام كلامه مرة أخرى، فانتبهت وبدأت أروي له ما حدث بالتفصيل وتوقعت أنه سيسعد من الذي حدث وأننا كصحفيين قد فعلنا شيئًا عظيم في مهنتنا ولكن رد فعله لم أكن أتوقعه أبدًا. صمت ولم يعلق على شيء وأخذ يقود السيارة في جنون تام حتى سألته وأنا لا أفهم شيئًا:

. في إيه يا حسام.

أوقف السيارة فجأة ونظر لي وقد أصبح الخوف قريبًا بوجهه تمامًا وقال وقد بدا عليه شظايا الغضب:

. في إيه؟ إنتي فعلاً مش عارفة في إيه؟

فقلت وأنا أتعجب مما يفعل وأنا حقًا لا أفهم شيئًا:

. لا فعلاً معرفش.

صمت لثوان ونزل من السيارة في مكان خال تمامًا من الزحام. وعلى غير عادة ضفاف النيل أن تكون هكذا؛ فهي دائمًا ما تكون مكتظة بالآلاف من العاشقين البسطاء الذين لا مأوى لهم غير النيل. نزلتُ خلفه وسرت حتى صرت خلفه تمامًا. فقال دون أن ينظر إلي:

. أنا بحبك يا مريم.

كانت كالصاعقة. الصعقة التي تعقب صدور رعد في ليلة من ليالي يناير القاسية. لم أفهم ذلك الشعور حينها. فكم هو جميل أن تشعر بأنك تسكن بداخل أحد ما ويراك في جميع ما يرى. كم هو لطيف أن تأتيك تلك الصاعقة بغتة على حين غفلة منك. فالأنثى هكذا، تظل ترى الحياة بعين رمادية حتى يأتيها ذلك الفارس على حصانه الأبيض فترى الحياة ربيعًا مبهجًا مليئًا بعبير الزهور التي لا تذر أنفًا إلا غازلته.

ولكن لم يحدث ذلك. لم تكن تلك الصاعقة لطيفة على الإطلاق. لقد كنت أرى الحب في عينيه ولكن كنت أقنع نفسي أنها ليست حقيقة. ولكن حدث ما خفت منه وما كان لعين المحب أن تكذب أبدًا.

لا ينبغي لأحد أن يُحبني فأنا لا أصلح للحب أبدًا. لا يجوز لأحد أن يعبر ذلك الجدار الذي بنيته بداخلي أو على الأحرى قد بنى نفسه بنفسه بداخلي فأصبح سورًا عظيمًا يخفي خلفه الكثير ممن أقنعهم شيطان الحب بأني صالح أن أكون طرفًا في إحدى تجاربه البائسة. ولكني لا أعرف كيف أخبره بذلك؛ فقد كانت تقول عيناه ما أخاف استيعابه. وفجأة التفت إلي وأخذ ينظر لي بتلك النظرات التي أعرفها جيدًا. نظرات طفل يعتقد أن أمه ستمنحه يومًا إلى شخص غريب ليعتني به. فأنا لم أكن أنظر غيرها لأمي وما كانت لتفهمها هي أبدًا.

لا أعرف كم من الثواني أو الدقائق أو القرون التي مرت ونحن هكذا؟ ينظر لي بتلك النظرات الطفولية التي بدأت تتحول تدريجيًا حتى أصبحت نظرات خوف ورجاء. تلك النظرات الخائفة التي دعته يمسكني من معصمي ويقول بصوت يملؤه الخوف:

-مش عاوزك تضيعي مني أبدًا.. أنتي بتقوليلي إنه شافك وده معناه إنه مش هيسيبك غير لما يوصلك.. أنتي لازم تستخبي اليومين دول يا مريم والشريط ده لازم يرجعلهم وأنا هعرف أرجعلهم إزاي المهم إن أنتي

متتأذيش.. أنتي الأهم يا مريم من أي حاجة وخصوصًا عندي أنا ومستعد أعمل أي حاجة عشان تفضلي كويسة.

حاولت تهدئته ولكن لم يكن في حالة تقبل الهدوء أبدًا. لم يكن أمامي سوى أن أقول وأنا ابتسم بهدوء:

- متقلقش يا حسام مش هيجرالي حاجة.. ولو حصل ده فدى مهمتنا. إحنا صحفيين يا حسام ومهمتنا إننا ننشر الحقيقة في البلد دي والحقيقة موجودة في الشريط ده.. عشان كده الشريط لازم يتنشر بأي شكل.

ثار وانفجر في وجهي وأخذ يتحدث بلهجة سريعة بالكاد استوعبت جزءًا مما قاله:

- أنا بقولك مش عاوزك تضيعي مني وأنتي تقوليلي الحقيقة والبلد. ملعون الاتنين على بعض.. أنا بحبك يا مريم ومش هسيبك أبدًا تعملي اللي في دماغك ده.

لم يكن أمامي سوى الكذب. فالكذب أحيانًا ما يكون مسكنًا لبعض الآلام التي يسببها الصدق. أخبرته بأني سأفعل ما يريد ليهدأ، وهدأ. لم أكن أتوقع أبدًا ما فعله ليُشفي من غضبه. لم يخطر ببالي أبدًا أنه سيتخذ الحضن وسيلة للبحث عن الهدوء والسلام النفسي. فعانقني..

عانقني دون أن أحرك ساكنًا..

- غريبة يعنى إيه اللي جايبك الصبح كده؟!

ترك أحمد الأوراق لتجاور فنجان القهوة الفارغ، والكثير من أعقاب السجائر المنتهية عمرها التي لا يعلم كيف استنفد جميعها؛ ثم نظر إلى "إبراهيم" الذي قال ذلك الكلام وهو يبتسم كعادته ليبادله أحمد نفس الابتسامة ليردف "إبراهيم" وهو يجلس:

- بقالي كتير واقف كده وأنت مش واخد بالك.. للدرجة دي الورق اللي بتقرأه ده مهم؟

- مهم جداً.. ده كلام مريم.

ارتسمت على وجه "إبراهيم" علامات التعجب والاندهاش قائلاً:

- مريم؟! مريم إزاي يعنى؟

تنهد "أحمد" تنهيدة طويلة ثم ضحك في تعجب وأردف:

- بص هو أنت ممكن ماتصدقنيش بس مريم موجودة يا عم إبراهيم.. عارف إنها مش هي مريم.. لكن نفس الشكل.. أقصد نفس العينين اللي مقدرش أنساهم أبداً.. العينين اللي أنا عشت فيهم أحلى فترة في حياتي صعب أنساهم.. مش عارف إزاي أقولك إن مريم موجودة ومش موجودة في نفس الوقت.

وكالعادة، لا يطيق "إبراهيم" أن يرى أمامه فنجانًا ولا يقرأه. ولكنه كان يستمع بإنصات شديد لما يقوله "أحمد". وانتظر حتى انتهى أحمد ليقول وهو ينظر في الفنجان:

- لا عادي هصدق.. الفنجان بيقول تقريبًا نفس الكلام.

اندهش "أحمد" وسأله:

- بيقول إيه؟!

أخذ "إبراهيم" يحدق أكثر في الفنجان وعينا "أحمد" تتابعه بتركيز شديد، وبعد دقائق صمت وتركيز قال "إبراهيم":

- شايفك واقف قدام مرايا.. بس مش أنت اللي ظاهر في المرايا.. في بنت لابسة نقاب وعنيها حلوة جدًا. أوصفلي عينين البنت اللي أنت بتحكي عنها كده؟

زالت علامات الدهشة من على وجه "أحمد" وتحولت إلى ابتسامة مطمئنة ثم أشاح بنظره إلى النافذة كأنما يخاطب أحدًا ما يقف هناك:

- عينيها؟! مش عارف.. مش عارف أصلاً دي عين ولا يمكن ربنا كده مزج كل الحور في خليط واحد وخد الناتج وسابه في عينَيها.. مش عارف أصلاً هي زرقا زى السما في عز النهار كده ولا خضرا

زي البحر لما يبقى القاع قريب.. مش عارف فعلاً يا عم إبراهيم بس اللي أقدر أقولهولك إن محدش شبهها.. زي مريم كده ماكنش ليها زي.

- الله يرحمها.

قالها "إبراهيم" ثم أردف وقد عاد بنظره إلى "أحمد" الذي ما زال ينظر إلى النافذة في شرود تام:

- تقريبًا كده يا أحمد الوصف اللي أنت قولته ده هو الوصف البسيط للتركيب العجيب ده.. حظك بس إني كبرت وإلا كان زماني خدتها منك.

لم يبتسم أحمد ولم يبعد عينيه عن النظر للنافذة وبدا وكأنه لم يسمع ما قاله "إبراهيم" مما جعل الأخير يصمت لثوانٍ، ثم أردف قائلاً:

- بص يا أحمد.. أنا أكتر واحد عارف أنت كنت بتحب مريم أد إيه.. وعارف إن زعلك عليها كسرك.. وعارف كمان إنك لسه بتشوفها في كل حاجة لكن إياك تنسى أبداً إنها ماتت.. ومش هينفع ترجع تاني، ممكن يكون ربنا بعتلك مريم تانية عشان تداوي الكسر ده.. ليه لا.. فياريت تدي لنفسك فرصة تبقى كويس يا أحمد.. وأنا واثق جداً إنك هتبقى كويس.

قال ذلك الكلام ثم انصرف بهدوء دون أن ينتظر أي تعقيب من "أحمد" الذي بدا غير مهتم أو لم يسمع ما قاله من الأصل. فهناك الآلاف من الذكريات تتصارع بداخله الآن, ولم تكتف بالصراع ولكن انتفضت من داخله لتُرسم على الحوائط والجدرانَ والنافذة الزجاجية أيضًا, تلك النافذة الذي يرى فيها مزيجًا من المريمتين.

ظل ينظر للنافذة في شرود تام وترك الذكريات لتصطحبه معها في رحلة إلى كوكب آخر؛ كوكب لا ينبغي لأحد أن يدخله إلا بإذنه. ترك واقعه وحاضره واستسلم وذهب في تلك الرحلة وأخذ يتذكر.

***

ليالي يناير الشتوية، والإضاءة الخافتة في المكان؛ تعطي فرصة للشموع لتبرز رونقها المميز، وبرغم الشتاء القارص فالدفء الناتج عن عناق يديهما لا يعترف بتلك البرودة أبدًا.

برغم جميع من في المكان لا يرى سواها؛ لم تكن هي لترى غيره أيضًا، يتكلمون بلغة لا يفهمها سواهم, لغة تشبههم وتشبه نظرات أعينهم التائهة. تلك النظرات التي يُقال فيها كل ما ينبغي أن يُقال، وتلك الابتسامة التي تجعل كل من يراها يبتسم رغمًا عن أنفه.

لم يكن "yanni" ليفوت تلك الفرصة أبدًا وبدأ في العزف لتصدر موسيقاه التي تذيب قطبين جنوبيين في فجر أمشير. نظر

"أحمد" إلى ذلك الشيء الذي يصدر منه العزف ليجد "إبراهيم" يغمز له بابتسامة ليرد عليه بمثلها. وجد أنه ليست هناك فرصة ستكون مثل هذا فمد يده إليها بورقة قائلاً:

- اقرأي كده يا حبيبتي الكلام ده.. واعذريني لو معرفتش أكتبك كويس زى كل مرة.

زادت ابتسامتها حتى وصل فمها إلى أذنيها ولمعت عيناها في عشق تام ثم مدت يدها لتأخذ الورقة وتقرأها:

*"مريم..*

*تلكَ الفتاة التي تفرَّدت بِجوامع الحُسن كلِّها..*

*تلكَ التي سُجنت في ملامحها براءة تقتُل مَن وضعها في خانات البشر.. لا ليست بشر..*

*ولولا أنّي أعلمُ أنَّ الملائكة لا تُرى لأقسمتُ بأنَّها قد نزلَت من السماء لتكونَ آية نرى فيها كيف أبدع الله في خلقه؛ ولكننا نراها.. لذا سأضطرُّ بأن أضعها بين صفوف البشر، ولكنَ في مقدمتهم؛ وإن كَانت قد خُلقتَ من طين مثلنا فَلابدَّ وأن نعترف بأنَّها قد خُلقت من طينٍ آخر.. لَا يشبَهنا.. لا ينبغي إلا لها..*

هذا ما أخبرَتهُ عيناي لعقلي عند اصطدامها بذلك الكوكب المُضيء؛ ولكنَّ قلبي لم يرها بتلكَ العين أبدًا . وأصرَّ أن يبحث عن سر ذلك الكوكب وكيف يُخفي خلفَ ابتسامته آلاف الدُّموعِ الباردة . .

لم يرى سوى أنثى تحتفظ بما تبقَّى من جمال حواء، ووفاء إيزيس، وحياء مَريم، أجل إنَّهَا تُشبه مريم العذراء و لكنَّها نموذجٌ آخر، نموذجٌ مُعقَّدٌ لِلبساطة، و الجمال، و النَّقاء . .

دُمتِ مريم" .

أغلقت الورقة وشرعت أن تقول شيئًا ما ولكنها وجدت أممًا من العبارات والكلمات تتصارع للخروج ليسمعها ذلك المتيم بعشقها؛ وما أن بدأت في حديثها :

- أنا . .

قاطعها قائلاً :

- أنا عندي لعينيكي كلام . . محدش غيري فى الدنيا . . يقوله فى يوم من الأيام . . ليكي أو لناس تانية . .

تنهد قليلاً ثم أردف :

- ولو الكلام يتقال . . عينيكي فى غربتي موال . . هخلق منها معنى جديد . . معنى فاق كل الخيال .

ابتسمت عيناها على أخرها قائلة :

- مش دي أغنية اسمي بتاعت أدهم سليمان؟! بحبها جداً على فكرة . . تعرف إن . . .

قاطعها ثانية :

- بحبك .

همَّت أن ترد ولكنه أردف فصمتت في عشق تام تسمع ما يقول :

- بحبك جداً . . مع إني بشوف الكلمة دي ضعيفة إنها تلخص كل الحاجات اللي جوايا وبتنتمي ليكي دي . . وعلى فكرة اللي أنت قريتيه ده مجرد وصف عاجز عن وصفك . . أنا بقيت أقرأ كتير جداً أكتر من الأول علشان لغتي بس تساعدني وتبقى كويسة يمكن ساعتها أعرف أوصفك .

وضعت يدها على فمه لتتكلم ؛ فقبَّلها وهو يبتسم لتتنهد هي تنهيدة يعشقها ثم قالت وهى تنظر في عينيه :

- عارف . . ساعات كتير ببقى مش عارفة أرد عليك . . وساعات أكتر ببقى عاوزة أقولك كلام كتير جداً ومن كتره مبعرفش أقوله . . لكن . .

تنحنحت قليلاً ثم أردفت:

- لكن بحبك.. بحبك زى ما أنت كده.. بحنيتك وجنانك اللي مبيطلعش غير معايا أنا بس.. وهدوءك ورزانتك اللي ميبعرفوش يظهروا قدامى وبتبقى طفل كده بحس إنك ابني وإني مسئولة عنك.. عارف أنت عندي إيه؟

ابتسم وهو يقرب وجهه من عينيها لتخجل وتحمر وجنتاها فيذوب عشقًا إجلالاً لما يرى. تمالكت نفسها وأكملت:

- أنت ضهري وسندي وكل الحاجات الحلوة اللي ربنا خلقها.. ممكن تكون الناس شايفني حلوة بس ميعرفوش إني لو حلوة فعلاً فده عشان أنت بتحبنى.. مينفعش حد أنت تحبه وميبقاش حلو.

دنى من جبهتها وقبلها قبلة طويلة؛ لتغمض عينيها وتذهب معه إلى حيث أخذها، عالم ليس فيه سواهما، لا يباليان بالناظرين إليهما فقد صنع العشق ستاراً يخفي وراءه كل شيء ويكتفي بهم فقط؛ فلقد تكاملت أرواحهما حتى أصبحا روحًا واحدة تتقاسم حياتها في جسدين.

تصاعدت نغمات هاتفه لتنتشله من أيادي تلك الذكريات، وقطعت رحلته. نظر في الهاتف فإذا بها "لمى" تتصل به فأجاب دون أن يتحدث كعادته لتبدأ هي:

ـ أنت فين يا بيه؟

تنهد تنهيدة طويلة ثم قال في هدوء:

ـ أنا في الكافيه وخلاص مروح أهو.

لفت انتباهها نبرات صوته المنكسرة فحزنت لذلك. أخذت تداعبه كعادتها ليضحك؛ ولكنه لم يبدُ في حالة قابلة للخروج منها فقالت وهي تضع حاجزاً لليأس أن يتسلل إليها:

ـ طيب تعالى على البيت بسرعة عشان عوزاك.

أخبرها بموافقته وأغلق الهاتف ولملم الأوراق وجميع متعلقاته؛ ثم وضعهم في حقيبته وهم بالانصراف؛ ولكن شيئًا ما استوقفه وجعله كالمصلوب في مكانه، فهناك وجه يظهر له في انعكاس النافذة الزجاجية، وجه يألفه كثيراً. فأخذ يسير بخطوات ثقيلة تجاه النافذة وهو يتساءل "أنبوءة إبراهيم ستتحقق؟". وجد الإجابة حينما دنى من النافذة ووجد ما قاله "إبراهيم" يحدث بالفعل. فقد رأى في انعكاس وجهه على المرآة وجه امرأة منتقبة لا يظهر منها سوى عينيها فقط، إنها هي بالفعل، ولكن ثمة شيء غريب يحدث؛ فقد ظهرت ابتسامتها واضحة من خلف النقاب وكأنها تريد قول شيء أو تهنئته على شيء ما. ظل ينظر لها في شرود تام وتعجب شديد؛ ولكنه استفاق سريعًا حينما شعر بالجميع ينظرون إليه في تعجب وخصوصاً

ذلك الشاب الذي يقف بعيداً عنه، ولكنه لم يبالي بهم وعاد إلى مكانه التقط حقيبته وترك ما يترك كل يوم وانصرف.

***

وكعادة شوارع شبرا إنها لا تعرف الهدوء أبدًا ولكن هناك شيئًا غريبًا يحدث؛ فالزحام لم يكن طبيعيًا ككل يوم.

لفتت أنظاره أشجار الكريسماس المزينة في كل مكان؛ فابتسم وعرف ما السبب في كل تلك الفوضى المبهجة. بداية عام جديد، آمال وأحلام جديدة. إغلاق صحيفة سنة بكل ما كتب فيها من ذكريات تُذكر ولا تُذكر، هذا ينطبق على الجميع إلا هو؛ فهو يعتبر الماضي هو الشيء الوحيد الذي يجعله يعيش حاضره، لا يريد بدء سنة جديدة لأن القديمة لم تنتهِ منه بعد ولا يتوقع ذلك.

أخذ يمشي بين صدور المحلات وهو ينظر في وجوه الأطفال الذين يرتدون قبعة "santa claus" وكما يطلقون عليه "بابا نويل"، ذلك الرجل العجوز السعيد دائمًا ويمتاز ببدانته وردائه الأحمر بأطرافه البيضاء ولحيته ناصعة البياض. يأتي في كل عام يعطي الهدايا للجميع ليستقبلوا عامهم الجديد بنفس تلك الابتسامة التي لا تفارق وجهه أبدًا. ظل ينظر لتلك الأشياء المبهجة حتى وصل للمترو فاستقله حتى وصل للمحطة المنوط به النزول عندها فنزل وتوجه للبيت.

لم يكن عم عبده موجوداً على باب العمارة فصعد وأخذ يطرق بيديه باب شقة الأستاذ "مجدي" ليُعلم "لمى" أنه قد أتى ولكن لم يتلقى أي إجابة فتعجب من ذلك واستدار إلى باب شقته وأولج المفتاح في الباب ودخل.

***

ظلام دامس، هدوء تام. هذا ما كانت عليه الشقة وهذا غير معتاد على الإطلاق ولكنه لم يهتم وأخذ يبحث عن أزرار تشغيل الإنارة وما إن ضغط عليها وأنارت الشقة حتى ذهل تماماً.

انطلق الأربعة يتغنون بالأغنية التقليدية في ذلك الموقف:

"Happy birthday to you.. Happy birthday to you...
Happy birthday to you Ahmed... Happy birthday to you"

رسمت على وجهه ابتسامة الرضا والسعادة المطلقة. أخذوا يعانقونه ويقبلونه؛ فهم الأربعة كل ممتلكاته في هذه الدنيا، والدته و"لمى" و"علي" والأستاذ "مجدي".

هناك أناس قد خلقهم الله هكذا، خُلقوا ليسعدوا الآخرين، وهناك من خُلقوا لإفساد تلك السعادة. ولكن هناك فئة تتوسط تلك الفئتين، وهم الذين ترتبط سعادتهم بسعادة آخرين. ربما يكونون

أناسًا معلوم هويتهم وربما لا، تلك هي الفئة التي ينتمي إليها "أحمد" . فهو يسعد بمجرد سعادتهم، فكيف باجتماعهم ليُسعدوه.

أخذت "منى" تقطع "التورتة" التي جلبها "علي" والتي يكون معظمها من "الشيكولاتة " التي يحبها أحمد. وقف "علي" بجانب "منى" وأشار إلى "التورتة" قائلاً:

- والنبي يا منى قطعيلي حتة من اللي فيها الكريز دي عشان بحبه.

ذهبت "لمى" لتقف من الناحية الأخرى من "منى" لتقول ساخرة:

- اديله يا منى اللي هو عاوزه عشان ده طفس وممكن ياكلنا.

ضحك الجميع لما قالت ووخزتها منى وخزة خفيفة كعادتها لتردف:

- إيه خايفة على مشاعره أوي؟! تفتكري هيزعل ومياكلش مثلاً؟! غلبانة يا منى أنتي والله متعرفيش أساسًا إنه ممكن ياكلنا أنا وأنتي لو جعان.

تعالت الضحكات أكثر من الجميع حتى "علي"، لكن عينيه الفاضحتين كانتا لا تكتفيان بالضحك بل كانتا تشعان بالكثير من العشق كلما تشرع في الحديث. وربما كان يبدو من كلامها نبرات

التوبيخ ولكنه يعلم أنها لا تقصد ذلك وأن خفة ظلها وشفافية روحها هما المتحكمان كليًا فيما تقول وتفعل. أخذ علي الطبق وهو ينظر لها مشيرًا إلى ذلك الرجل الذي يقف بجوار "أحمد" قائلاً:

- طب وحياة الراجل اللي واقف هناك ده اللي هو أبوكي يعني.. مانا مخلصلك الشغل اللي طالباه منى علشان الجاليرى.. ابقي خلي طولة لسانك دي تنفعك.

ضحكوا لما قال فذهبت "لمى" "لأحمد" الذي يحب شجارهما كثيرًا، فكأنه يشاهد فيلمًا كوميديًا يبعث في روحه ابتسامة صافية. فما أجمل الابتسامة التي نتبسمها بداخلنا. فجميعنا نستطيع أن نبتسم؛ ولكن القليل فقط من يبتسمون حقًا. وضعت يدها على كتف "أحمد" وهي تنظر لعلي قائلة:

- مش عاوزة منك حاجه على فكرة. أحمد حبيبي هو اللي هيعملي كل اللي أنا عوزاه مش كده يا ميدو؟

ضحك علي وهو يلتهم قطعة من الشيكولاتة:

- ميدو؟! هاهاهاها.

قالها ثم توجه إلى الشرفة التي تطل على شارع "محمد علي" لتتبعه "لمى" بينما يذهب "أحمد" و"مجدي" للجلوس يتحاوران قليلاً.

الهواء بارد جداً في الشرفة ولكنه لم يكترث بذلك. ولم يغلق حتى معطفه ليمنع ذلك الهواء أن يقتحم صدره. ترك الطبق على سور الشرفة ولم يكن قد أكمل نصفه بعد، ثم أخرج سيجارة وبدأ يشعلها لتدخل "لمى" وتمد يدها تلتقطها من فمه وتقذفها أرضًا لينظر "علي" إليها في تعجب وتذمر. لتقول في خفة كعادتها:

- يعني هتبقى تخين وكمان بتدخن. . صحتك يا ابني مش كده.

لم يسمع جيداً ما قالت فقد كانت عيناه تائهة في عينيها فلم يسمع جيداً ما قالته مما دعاها أن تحرك يديها حول عينيه قائلة:

- يا ابني. . أنت معايا ولا مع الأسف؟

أشاح بنظره سريعًا للاشيء مرة أخرى وأخرج سيجارة غيرها وأشعلها ولكن لم ترمها "لمى" هذه المرة ووقفت بجانبه تنظر إلى ما ينظر. ذلك اللاشيء المزعج.

ظل الصمت سائداً قليلاً حتى قطعت ذلك الصمت بصوت لا تميزه نبرات الخفة كعادتها:

- هتصور الصور اللي طلبتها منك إمتى؟ افتتاح الجاليري قرب وعاوزين نبقى جاهزين.

نفخ دخان سيجارته وكأنه يزفر فيه بكل ما يريد بوحه. ثم نظر إليها قائلاً:

- بكره.. بكره إن شاء الله نصور اللي إنتي عاوزاه.

لم ترد عليه وهزت رأسها في إيجاب ليعودا ينظران إلى اللاشيء مرة أخرى. تسمع ما يريد قوله وهو يعتقد بأنها لا تسمع. لا يعرف طبيعة الأنثى الخالدة؛ لا يعرف أن الأنثى تسمع ما يُقال لقلبها بوضوح تام دون أن تنتظر اللسان أن يُترجم ما يريد القلب قوله.

لم ينهِ ذلك الصمت العاجز سوى صوت "مجدي" الذي أتى من الداخل ليناَدي على "لمى" كي يذهبا إلى الكنيسة ليحتفلوا ببداية عام جديد. لم يَلبث "علي" بالشرفة كثيراً بعد خروجها حتى خرج وهو يضحك كعادته لا يظهر عليه شيء مما حدث منذ قليل؛ فهو يؤمن بذلك. ليس هناك فائدة من إظهار عبوس وجهه أو أن يشعر أحداً بأنه ليس على ما يرام؛ فهو جيد في ارتداء الأقنعة ولكن ليست أقنعة زائفة أبداً. فهو مستعد أن يعطي كل ما يملك من قوة أو طاقة لكي لا يرى نظرة شفقة أو عطف من أحد، فلذلك قرر أن يكون هكذا؛ ضاحكاً مبتسماً دائماً، ينشر الابتسامات حيثما وجد. وإذا شعر بنفاذ طاقته التي يخبئ بها بركاناً من الحزن والغضب لا يجد ملاذاً سوى اجتناب الناس إلى أن يعيد شحنها مرة أخرى. ولذلك فهو يعشق الذهاب للسيرك دائماً، يشاهد شخصية تُبرع في تجسيد شخصيته ولكن على

خشبة المسرح، "البلياتشو". الشخص الذي حكم عليه ألا يغلق فمه أبدًا ولا يُؤذن لنواجذه أن تتنحى عن ظهورها فتظهر ضحكته زاهية في أخيب صورها. يعلم أحمد كل ذلك وحاول مرارًا وتكرارًا أن يُثنيه عن فعل ذلك ولكن لا فائدة. فهو عبقري في ارتداء الأقنعة وتغييرها حين تتشوه أو تتآكل.

- بكره هنروح مع لمى عشان أصورلها الصور اللي هي عاوزاها.. هتيجي معانا ولا إيه؟

قالها "علي" وهو يتجه للباب ليخرج ناظرًا "لأحمد" الذي شعر بأن هناك شيئًا يخبئه علي ولكن براعته في ارتداء قناع اللامبالاة قد حال دون اكتشاف ما يخطر بباله. قال "أحمد" وهو يتجه لغرفته هو الأخر:

- لا لا.. روحو انتو أنا ورايا حاجات اليومين دول بعملها فمش فاضي.

نظر "علي" "لمنى" نظرة لم يفهمها "أحمد" ولم يهتم وتوجه لغرفته فور خروج "علي". الغرفة الكئيبة كما تطلق عليها "لمى"؛ فهي دائمًا ما تكون مظلمة رغم محاولات والدته في إنارتها التي دائمًا ما تبوء بالفشل؛ فالظلام هو الشيء الوحيد الذي يرى فيه انعكاسه شفافًا لا تشوبه شائبة.

أخذ ينظر إلى ذلك الصندوق الأسود الموجود أعلى دولابه وكأنه يحاوره. أراد أن يمد يده ويأتي به ويفتحه ولكن ذلك الصراع الذي ينشب بداخله دائمًا لم يدعه يفعل ذلك. بدل ملابسه واستلقى على الفراش وهو يخرج من حقيبته تلك الأوراق التي أصبحت كقهوته وسجائره، لا بد وأن يقرأها في كل يوم حتى ينتهي منها ويفهم قصة تلك الفتاة التي أقحمت نفسها في حياته دون استئذان.

أخذ يبحث عن المكان الذي كان قد أوقفه عنده "إبراهيم" عن القراءة وما إن وجده حتى بدأ يقرأ:

لم أكن أملك شيئاً أقاومه به. عانقني حتى شعرت بأنفاسه تخترق أذنيَّ وتسير في طريقها حتى يترجمها العقل إلى إشارات خوف تبحث عن الأمان والطمأنينة. أؤمن دائماً بأن العناق هو الحل الأمثل لإخماد نيران الخوف والقلق. تلك الهرمونات الشيطانية التي تُفرز حينها وكأن الله لم يخلق ما يعادلها نشوة أبداً. وبرغم أنني أسمع نداءات قلبه لم أكن لألبيها. ولم تكن لدي القدرة على إيقاف إفرازها. وما كانت لدي شجاعة تكفي بإخبار طفل بأن أمه لا تصلح للأمومة أو أنها يوماً ما ستمنحها له؛ فليتخذ اليتم سبيله منذ الآن.

شعرت بأنه قد هدأ بعض الشيء فأبعدت نفسي شيئاً فشيئاً عنه. وجدته يمد يديه مشيراً إلى الكاميرا لأعطيها له فظللت أفكر كيف سأهرب من ذلك المأزق وكيف سأقنعه بأن يتركها لي. كيف أخبره بشيء وأطلب منه السماح بفعل نقيضه. ظل ماداً يده وعلى وجهه علامات الصرامة بأنه لن يسمح بتغيير ما يريد حدوثه.

لم أجد سوى السبيل الوحيد الذي رأيت بابه قابلاً للفتح فطرقته ومددت يدي أعطيها له:

- أنا هديهالك زي ما انت عاوز.. بس عاوزة أطلب طلب ممكن؟

هز رأسه إيجاباً ليسمح لي بأن أكمل:

- أنا وعدتك إني مش هنشره وادينهولك زي ما طلبت.. ممكن بس تسيبهولي أشوفه؟ عاوزة أعرف كانوا بيقولوا إيه ويخططوا لأيه.

هم بأن يثور مرة أخرى ولكني نجحت في أن أخمد ثورته قبل أن تبدأ وتحولت نبراتي إلى نبرات غضب وتعنيف:

- ما هو أنا معملش كل ده وكنت هموت عشان أسجل الفيديو ده وفي الآخر منشروهوش.. لا وكمان مش عاوزني أتفرج عليه وأشوف أنا عملت كل ده عشان إيه.

نجحت تلك الخطة ومد يده بالكاميرا مرة أخرى ليعطيها لي فأخذتها وأنا أنظر في عينيه التي لا تزال تشبه طفل لم يتجاوز الثالثة على الرغم من وسامته ورصانته أيضًا. أخذ يصطنع ابتسامة تخفي وراءها جبال الخوف والفزع ولكني كنت أراها جيدًا فابتسمت ابتسامة تبعث في روحه وقلبه ذلك الأمان الذي يبحث عنه. ركبنا السيارة مرة أخرى واتجهنا إلى بيتي وقبل أن أتركه وجدته يقول بحدة:

- مريم.. بكره هعدي عليك أخد منك الشريط ده وأنا هتصرف.. متتحركيش من البيت لحد ما أجيلك بكره.

تبسمت ابتسامة مصطنعة تعلمه بموافقتي الآبية ونزلت من السيارة بين أنظاره ومتابعته هو وتلك السيدة التي تقف في الشرفة تنظر إلى

السيارة وتتبع دخولي الى باب المنزل لتغلق خلفها باب الشرفة في غضب وتنتظر دخولي الشقة. تلك الشقة التي لا أنتمي الى أي ركن فيها. فهي مدينة لا يعرف سكانها بعضاً. ننتمي الى بعضنا في اشتراكنا في أننا كنا نتاج إفراز سائل تناوب استيطانه على كويكبات صغيرة فانتجنا. هنا حيث أشعر بالوحدة رغم وجود سكان تلك المدينة.

لم تترك لي فرصة كالعادة وما أن دخلت إلى الشقة لأجدها تقف أمامي وهى تفحص بعينيها تلك الثياب الذي أرتديها. لم تكن هناك فرصة لأبدل الثياب الذي أعطاها لي ذلك الشاب في الفندق. وبعد نظرات أكرهها كثيراً قالت وهى تشير بأصابعها إلى ملابسي:

- كنتي فين؟! وايه اللي أنتي لابساه ده؟!

لم يكن هناك شيئاً لأقوله. لم يكن هناك مبرراً يمكن أن تصدقه. ولم يكن هناك ما يساعدني في قول الحقيقة. أعرف جيداً ماذا ستفعل حين أخبرها بما حدث. ستكسر الكاميرا وتحرق الشريط وتخبرني بأني لن أذهب إلى عملي مرة أخرى. جددت سؤالها مرة أخرى بصوت أعلى وتابعته قائلة:

- إيه خرستي ولا إيه؟!

تمالكت أعصابي وأخذت أجمع ما سأقوله في ذهني وقولت بهدوء شديد:

. كنت في مسرحية تبع الجريدة عندنا.. واللبس ده لبس الشخصية اللي كنت بمثلها.

لم يبدُ لي أنها اقتنعت وما كان المبرر ليصدقه طفل لم يفطم بعد ولكن ثقتي وأنا أتحدث لم تعطي لها فرصة بالتشكيك فيما أقوله فتركتني أدخل غرفتي وسط أنظار هؤلاء الأشخاص الذين يترقبون حدوث ما يسعدهم ولسوء حظهم لم يحدث.

فور أن دخلت غرفتي جلست في أول كرسي يقابلني وأغلقت الباب خلفي لكي لا يدخل أحد بدون أن أأذنُ له. لقد قتلني الفضول فلم يتبق لي أي طاقة للانتظار بعد الآن. أدرت الشريط لأجد ما توقعته صحيحًا. هناك شيئًا ما قد حدث بداخل ذلك الفندق يستحق تلك المخاطرة. وهذا ما رأيته بالتفصيل..

****

تقف أمام النافذة مشعلة سيجارة وتدخنها في صمت. أما هو فقد كان مستلقيًا على السرير يتفحص كل ذرة في جسدها المثير. ابتسمت ابتسامة ماكرة لعلمها بأنه ينظر لها تلك النظرة وأنه يريد شيئًا ما. قالت وهي تنفخ دخان سيجارتها ولا تنظر إليه:

. مش وقته اللي بتفكر فيه دلوقتي.. خلينا نتكلم في المهم.

قام من مكانه وهو يغمز بعينيه ضاحكًا، فقال:

- هو في أهم من كده؟

لم ترد عليه ليدنوا منها ويحتضنها من الخلف ويميل بوجهه يلامس وجهها، أخذ يقبلها في رقبتها لتغمض عينيها وتتحرك معه حيث يوجهها. تركته يصل إلى أعلى نشوته لتبعده عنها. ظل ينظر لها كالكلب الذي يشتهي عظمة وينتظر أن ترمى إليه. أطفئت السيجارة وأخذت تمشي بدلال مثير حتى صارت بجانبه فوضعت إصبعها على فمه؛ فقبله. كان هناك على المنضدة زجاجة تحتوى نبيذ فرنسي فاخر مكتوب عليها Cognac. صبت كأسين وأعطته واحدًا وجلست أمامه وهى تقول:

- طبعًا أنت عارف إن معاليه مكلفني إني اتفق معاك على كل حاجه.. أنت عارف مينفعش يبان في الصورة حتى لو من بعيد.

- مش غريبة يعنى معاليه يثق في حد لدرجة إنه يكلفه يتفق معايا في موضوع مهم زى كده؟

- مش غريبة ولا حاجه.. لأنه غالبًا دلوقتي عارف إحنا بنقول إيه وبنعمل إيه.

غمز بعينيه وهو يضحك:

- وعارف برضه هنعمل إيه؟!

ضحكت بصوت عال:

- هو انت دماغك كلها اتجاهاتها شمال؟! معندكش يمين أبدًا.

- لا لا يمين إيه؟! إحنا اتخلقنا عشان نتبسط بس.

- طيب. قولي بقى هتقدم إيه في المقابل؟

- انتي بتاخدي كام فى الليلة؟

ضحكت مرة أخرى بصوت أعلى وقالت:

- مش بقولك اتجاهاتك كلها شمال.. أنا أقصد في الموضوع اللي إحنا موجودين هنا عشانه.

- الموضوع اللي إحنا هنا عشانه؟ امم.. طيب أنا هقدم مقابل كويس أعتقد إنه هيرضي معاليه.

- اللي هو؟

- أنا اشتريت المصنع المنافس لمعاليه.. طبعًا محدش يعرف إن معاليه هو المالك الحقيقي لأكبر شركة حديد في مصر.. بس إحنا برضه مفيش حاجه منعرفهاش.

قالها وهو يغمز بعينيه لتبتسم هي فأكمل:

- الشركة اللي أنا اشتريتها دي اعتبريها بقت جزء من الشركة بتاعت معاليه ومش هنختلف على النسبة.

رفعت حاجبها في استنكار:

- مش كفاية.

قام من على كرسيه وهو يتجه للنافذة:

- لا.. أعتقد إنه كفاية أوي على مجرد كرسي في مجلس الشعب.

- لا أنت عارف كويس أوي إنه مش مجرد كرسي.. أنت الحصانة بالنسبة لك زي الشمسية اللي تحميك من الشمس عشان متتحرقش.

- يبقى اتفقنا ومحدش أحسن من حد.

قامت لتقف خلفه تمامًا كما فعل وتحتضنه من الخلف قائلة:

- مبروك عليك الكرسي يا سيادة النائب.

استدار لها وقبلها. لامست شفتاه كل ذرة في جسدها فأخذت تفتح الأزرة المتبقية في قميصه وفي لحظة. أصبحا عاريين يمارسان البروتوكول الرسمي لإبرام التعاقدات في تلك الفئة الفاسدة. وتؤجل المباركة إلى أن يفرغ أحد الطرفين ماءه. فتجوز التهنئة حينها.

هذا ما كان بداخل الفيديو وقد صدق حدسي وتوقعي بأن هذا الفيديو يمكنه أن يطيح برأس من الرؤوس الفاسدة التي تمتلك بيديها حبالاً مربوطًا بها شعب بأكمله. يحركونها كما يشاءون. إنها الفرصة التي انتظرتها طويلاً وها هي قد أتت أخيرًا. ولكن حسام..

أنني تماماً أنه لم يترك لي الفرصة أبداً وكذلك أنا لا أريد أن أخلف وعدي معه ولكن من الصعب أن أقطع لسان الحق وأترك الباطل يغتصب بذور العدل والانصاف ويذرها جرداء كما هي عليه. لم يخطر ببالي أبداً أنهم هم أيضاً لم يتركوا لي تلك الفرصة. لم تمر الليلة ولم تنكشف أنوار الصباح حتى؛ فهؤلاء السادة لم يسمحوا أبداً بأن يفسد أحد عليهم خططهم وحياتهم. لم يسمحوا لحشرة أن تأكل عصا سليمان مرة أخرى فيلبثوا في العذاب المهين. لم يسمحوا لي بتلك الفرصة أبداً.

جميع التفاصيل تكرر ظهورها مرة أخرى.

يمد يده إلى الهاتف ليغلق المنبه وينظر إلى اليد الأخرى التي تمسك الأوراق فيأخذها ويضعها على "الكومودينو"؛ ولكن الغريب هذه المرة أن والدته لم تدخل هذا الصباح فتعجب. خرج يبحث عنها ليجدها تجلس على الأرض وهى ترفع يدها داعية:

- يا رب.. يا رب أنا مليش غيره.. اهديه واشفيه وأرضى عنه.. و داوي قلبه يا رب وصبره.. أحمد غلبان وطيب فطبطب على قلبه يا رب.. عارفة إن حظه قليل في الدنيا بس مفيش أكرم ولا أحن منك يا رب فأكرمه وأرضى عنه.

لم تشعر بأن دموعها قد ملأت عينيها ولم تشعر أيضًا بجلوس "أحمد" خلفها ودموعه تهبط في مشهد لا يتكرر كثيرًا، فهو منذ أمد بعيد لم يبكي أمام أحد. نظرت خلفها لتجده يبتسم ودموعه تملئ عينيه ففتحت ذراعيها له فاحتضنها. أخذت تمسح بيديها على رأسه ووجهه وهى تقرأ بعض آيات من القرآن وهو مغمض عينيه هادئًا. يشعر براحة لم يشعر بها منذ فترة طويلة. قبَّل يدها وقام ليستعد ليذهب إلى عمله وبداية يوم جديد وإصرار واضح في إكمال تلك الأوراق التي لا يدرى إلى أين ستنتهي به.

****

ضغط على شاشة هاتفه لتصلها رسالة يخبرها فيها أنه استيقظ وجاهز للذهاب. وفور أن كتب ابتسمت عيناه على أخرها حين وجد كلمة "متصل الآن" تزين اسم "لمى" الذي يكون بجانبها. أخبرته أنها ستكون مستعدة بعد نصف ساعة وستنتظره تحت بيتها. هذه هي المرة الأولى التي ينفرد بها في مكان بعيد عن بيتهم. تمنى كثيراً تلك الفرصة وفور أن جاءت تمنى أنها لم تأتي. فهو لا يعرف كيف سيأتي بطاقة يخفي بها عينيه الفاضحتين اللتين تبوحان بكل ما لا يريد قوله.

انتقى أجمل ما يمتلك من ملابس ووضع عطره الذي أخبره "أحمد" مسبقًا أنها أهدته له في عيد مولده فحرص دائمًا على أن يقتني كل زجاجات العطر الموجود من هذا النوع خوفًا من ألا يجده مرة أخرى.

في غضون نصف ساعة كان يقف أسفل بيتها ينتظرها وما هي إلا دقائق حتى كانت أمامه. كانت كفراشة أخطأت حقلها وارتدت إحدى أثواب بنات حواء، تلك النغزة التي تزين خدها الأيمن تهلكه كثيراً. لم يكن متحملاً أن يرى ذلك مطلقاً. شعر وكأنما يمسك بيديه قنبلة ويخاف أن تنفجر في وجهها في أي لحظة. يخاف أن ينفجر العشق بداخله فيهلك معه كل شيء. أوقف "تاكسي" وأمره بالذهاب إلى شارع المعز لدين الله الفاطمي حيث المكان الذي سيصور لها ما تريد.

****

شارع المعز لدين الله الفاطمي، ذلك المكان الساحر الذي يبعث في النفوس جمالاً وهدوءً رائعين. فهو يختصر حقبة زمنية امتازت بجمال التصاميم وعبقريتها، ولهذا اختارته "لمى" ليكون هو المصدر الرئيسي لتزيين الاتيليه بجوار التحف ولوحاتها؛ ولكنه يختلف نهاراً وليلاً. ففي النهار تجده متحفًا للتاريخ ومكانًا رائعًا للتصوير والاستمتاع بذلك الجمال الأخاذ، أما بالليل فهو مصدر إلهام للعقول الناضجة التي تستنشق منه وقوداً لآلاف القصائد واللوحات الرائعة. لم يكن المكان مزدحمًا في ذلك الوقت المبكر من الصباح ولهذا سيكون الأمر مريحًا لهم نوعًا ما.

- ها خطتنا هتبقى إيه؟

قالها علي وهو يخرج من حقيبته الكاميرا فور دخولهما إلى شارع المعز لتخرج "لمى" هاتفها وقالت وهى تنظر فيه:

- بص يا سيدي. . إحنا المفروض نصور كده في كذا مكان هنا. . جامع الحاكم وبيت السحيمي وجامع الأقمر والمدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية. . .

- لا بصي أنا عندي اقتراح أحسن.

- اللي هو؟

- إحنا ناخد الشارع كده من أوله لأخره ونصور اللي إحنا عاوزينه.

هزت رأسها بالإيجاب فانطلقا يمران بجميع الأماكن الموجودة بالشارع. يصور ما تشير إليه ولم تُلقِ بالاً بأنه لم يصور شيئًا أبدًا. ربما كانت الكاميرا تصور أما هو فقد كان يستخدم الكاميرا التي خلقه الله بها، كان يصورها بجميع تفاصيلها. وعندما تلتقي عينيهما يشيح بنظره إلى المكان الذي يصوره بالكاميرا لا بعينيه. ولكنه للمرة الثانية يخطئ في دراسة سمات الأنثى الخالدة؛ فهي تعلم ما يفعله وتتظاهر أنها لا ترى. وتعلم أيضًا أنه ينظر إليها بعينين عاشق قد سلخ العشق قلبه فأصبح مكشوفًا يراه الجميع.

وبرغم محاولاته المستميتة فقد اتزانه في لحظه وانفجر بركانه الخامد. لم يكن ليمتلك أعصابه حينما رآها تجري كطفلة فور دخولهم مسجد الحاكم بأمر الله. أخذت تدور حول نفسها كالدراويش، وأخذ هو يلتقط لها آلاف الصور بعينيه التي لن يسمح لهم بالنسيان أبدًا، وجد نفسه تلقائيًا يرفع الكاميرا التي بيديه ويصورها وهى في أنقى صورها. الوجه الأسمر الجذاب، العينان العسليتان الفاتحتان، الشعر الناعم كالحرير، وتلك النغزة القاتلة التي تقتحم قلعة ابتسامتها فيصير الحكم للجمال فقط. التقط لها تلك الصورة وأخذ ينظر في الكاميرا بشرود تام. فهو يعشقها حرفيًا كما ينبغي للعشق أن يكون. دنت منه وهي تنظر له وهو في تلك الحالة التي لا تنبئ بخير أبدًا. قالت وعلى وجهها علامات الاستفهام:

- مالك يا ابني في إيه؟!

لم ينظر لها وظل ناصبًا عينيه تجاه الصورة وما زال الشرود يخيم على ملامحه فصمتت دون أن تنتظر رده. بعد دقائق لا يعلم عددها رد وهو يبتسم معطيًا الفرصة لقلبه أن يتكلم بعد صمت دام طويلاً في ظل احتجاج العقل على ذلك التصرف الفوضوي من وجهة نظره:

- عارفة.. أنتي أجمل حد عدى على الكاميرا دي.. ومعتقدش إن حد هيعدي عليها بعدك.

ابتسمت ابتسامة صافية فنظر لها وأدرك أن القنبلة التي يخاف انفجارها قد أوشكت بالفعل على الانفجار. فعاد مسرعًا ليطيل فترة إبقائها خامدة وأردف:

- متتغريش أوي يعني.. كده كده الكاميرا دي بتاعت الشغل فأكيد يعني الحاجات اللي بصورها مش هتبقى أحلى منك.

لم يفلح في إخماد القنبلة فقد انفجرت بالفعل. ظلت تنظر له نفس النظرة التي لا يفهمها ولكنه تيقن أنه لم يفلح في إبطالها. شعرت بارتباكه فقالت وهي تضحك:

- يا ابني أنا مش محتاجة رأيك أصلاً.. كفاية إني عارفة إني حلوة وألف من يهواني.

ضحك لما قالت ضحكًا شديدًا وأخد يلتقط صورًا عديدة للمكان ولكن ظلت هي واقفة في مكانها ولم تتحرك فعاد إليها يسألها:

- في إيه مجيتيش ورايا ليه؟

تنهدت تنهيدة طويلة لتقول بعدها:

- أحمد.. قلقانة عليه جدًا.. تعرف هو بيحب المكان ده جدًا وعلى طول كان بيحكيلى إنه كان بيجي هنا هو ومريم الله يرحمها.. من ساعة ما ماتت وهو مبقاش كويس وبقى على طول بيحب يبقى لوحده.. قلقانة عليه جدًا يا علي.

بدا على وجهه أيضًا أنه يوافقها فيما تقول. وقال وهو في نفس الحالة التي تنتابها:

- وأنا كمان قلقان عليه أوي وبحاول على أد ما أقدر أخرجه من اللي هو فيه.. بس إحنا كنا فين وبقينا فين.. انتي ناسية؟! ده مكانش بيخرج من أوضته أصلاً ومبيتكلمش مع حد.

- أكيد مش ناسية.. بس أحمد مبقاش طبيعي صدقني.. محدش عارف أحمد أدي أنا.

- طيب بصي أنا بحاول أعمل حاجة كده من غير ما أقول لحد وإن شاء الله الحاجة دي تساعده بشكل كبير.

تعالت على وجهها علامات الفرحة فجأة لتسأله في حماس:

- حاجة إيه؟

أخرج من محفظته كارت شخصي مكتوب به "د/ علا قطري" وتحت ذلك الاسم مكتوب "دكتوراه في الطب النفسي" وفى أطراف الكارت يوجد رقم الهاتف وعنوان العيادة الخاصة بها. أمسكت الكارت ونظرت فيه دون فهم، فأردف:

- ده الكارت بتاع دكتورة علا قطري.. من أشهر الدكاترة في الطب النفسي وهى دي أكتر حد يقدر يساعدنا.

نظرت له نظرة استنكار وقالت فى تحذير شديد:

- أوعى تكون بتفكر في اللي أنا فهمته ده؟! ده أنت تبقى أتجننت ومش عارف أحمد باين.

ابتسم في هدوء شديد ليرد بكل ثقة:

- لا عارفه كويس.. أكتر ما أنتي تتخيلي كمان.. أحمد بيحب الدكتورة دي أوي ودايمًا متابع أخبارها وأبحاثها.. ما أنتي عارفة بيحب الطب النفسي ودايمًا بيقرا فيه.

- أيوة ماشي مختلفناش.. هتقنعه إزاي بقى حضرتك إنه يقابلها؟

زادت ابتسامته الواثقة:

- متقلقيش دي أنا عامل حسابها كويس.. أنا كلمتها وفهمتها الموضوع.. وهنرتب الموضوع كأنه صدفة.. وهنكلمه دلوقتي ونقنعه يجيلنا وبعدين نروح نتغدى في مطعم كده هي هتكون هناك والباقي عليها هي.

زادت علامات القلق على وجهها لتقول:

- مع إني مش مستريحة للي أنت بتقوله ده بس نحاول مش هنخسر حاجة.

أخرج علي هاتفه وضغط على الأرقام الذي يحفظها بسرعة فائقة واتصل ليرد "أحمد" ولم يبدأ كعادته ليقول "علي":

- إيه يا معلم أنت فين؟

ليرد "أحمد" بهدوئه المعتاد:

- هكون فين يعنى.. في الشغل.

- طبب تمام.. تعالالنا بقى عشان عاوزينك.

تعجب "أحمد" لما قال "علي" ورد في تعجب:

- اجيلكوا؟! ليه هو أنت فين ومع مين؟

رأت "لمى" علامات القلق والتعجب ترسم على وجه "علي" الذي قال متعجبًا:

- أنا مع لمى يا ابني بنصور في المعز . أنت نسيت ولا إيه ما أنا قايلك أمبارح؟!

صمت "أحمد" ولم يرد ليردف "علي" محاولاً إدراك الموقف:

- تعالالنا بس عاوزينك ضروري.

- ماشي هخلص اللى بعمله وهجيلك.

- طيب متتأخرش بس.

أغلق "علي" الاتصال وعاد "للمى" الذي ما زال القلق ينتابها ولكن علي طمأنها وأخذا يكملان مهمتهما التي أتيا من أجلها ينتظران قدومه، وعلى الناحية الأخرى أغلق "أحمد" الهاتف ووضعه بجانبه وأخرج من حقيبته الأوراق ليكمل قراءة ولكن وقعت ورقة من الحقيبة على الأرض فانحنى ليلتقطها. ابتسم وهو يتذكر تلك الورقة ومالها من ذكريات؛ فقد كتبت بين أحضان رمال وشواطئ الإسكندرية . .

الإسكندرية العظيمة. تلك المدينة التي تطبعت بطباع البحر فأصبحت مثله. تعطيك ما لا يعطيه لك مكان آخر. فهي مأوى العشاق الهائمين. ومأوًى أيضًا لمن قسم ظهره الفراق. أخذ يقرأ ما هو مكتوب في الورقة وهو يبتسم ابتسامة منكسرة:

*"سنكتب . . سنكتب إلى أن نموت"*

رفع رأسه قليلاً ونظر إلى السماء في سكون . . قطع ذلك السكون دمعة هربت دون إذنه فسقطت على ما كتب . . فنظر إلى ما كتب وبدأ يقرأ:

" السلام عليك . . يا من رحلتي ولست عني راحلة . . أقرؤك السلام من كُتبك التي اَشتاقت إليك . . من قهوتَك التي فقدت نكهتها منذ أن رحلتي عنهَا . . لماذا حكمتي بَيننا بقاضٍ بيني وبينه ثأر لن ينتهي إلى أن ألقاه فينال مني . . كفى بالموت قاضيًا غيرَ عادل . . ها أنا ذا . . أرسل لك خطابي الأول . . من ذلك المكان الذي ذهبت منه إلى الجنة لتنتظريني هَناك . . سآتي يومًا . . ولكن ليس قبل أن تَكتمل تلك اللوحة التي رسمناها سويًا . . لن تموتي أبدًا مازلت أنا على قيد الحياة" .

. تمتم وهو يغلق الورقة وهو يتنهد تنهيدة بائسة :

- سنكتب . . سنكتب إلى أن نموت .

أخرج حافظة نقوده ثم وضع الورقة فيها وأعادها مكانها مرة أخرى .

أمسك الأوراق بيده وبدأ ينظر إلى ذلك الاسم الذي يتوسط الورقة الأولى كعادته " مريم " . أخذ يقلب الأوراق ويبحث أين وقف عند القراءة ليجد ما يبحث عنه وشرع في القراءة :

وحدث ما توقعته؛ فبينما أنا أفكر في خطة لنشر ذلك الشريط فإذا بجرس الهاتف يرن. خرجت مسرعة قبل أن يرد أحد من هؤلاء السكان الذين يسكنون معي في نفس الشقة. وما إن رددت وبدأت المكالمة فإذا بتلك الفتاة التي قابلتها في الفندق تتحدث وهي تبكي:

- أيوة يا أستاذه مريم.. أنا أسفة جدًا والله.. بس مقدرتش أعمل حاجة وهما بيضربوه وبيهددوني بقتله.. لازم تهربي دلوقتي لأنهم عرفوكي ومش هيسبوكي أبدًا.

وما إن هممت أن أرد لأجدها قد أغلقت الاتصال. لا أعرف ماذا أفعل؛ فقد تلون وجهي بجميع ألوان الخوف والفزع. حتى أن إخوتي لاحظوا ذلك، فانتبهت وأخذت أضغط على الأرقام في جنون ليرد حسام في الناحية الأخرى فقلت له بصوت منخفض لكي لا يسمع أحد:

- حسام.. عرفوا كل حاجه وجايين على هنا.

انفجر غاضبًا كالإعصار:

- أهو حصل اللي كنت خايف منه.. حذرتك يا مريم ومفيش فايدة.

لم أرد لأن الأنظار ما زالت تحدق بي ليردف هو:

- أنا هكون عندك تحت البيت دلوقتي بالعربية.. سلام.

وضعت السماعة بيد مرتجفة، لا أعلم ماذا أفعل، لم أكن أتوقع أن هذا سيحدث، وما إن أغلقت الاتصال حتى وجدت أمي تقف أمامي وهي تنظر إليّ بتلك النظرات التي أكرهها دائمًا، ولكنني كنت خافضة رأسي لكي لا ترى الارتباك في وجهي:

- كنتي بتكلمي مين؟!

قالتها أمي وهي تنظر إليّ فلم يكن لدي القدرة على الرد فصمت. أعادت كلامها مرة أخرى ولكن بصوت أعلى من السابق مما دعا إخوتي أن يأتوا ليقفوا بجانبها، وفي ظل صمتي وعدم إبداء أي رد فعل مني وجدت يدها تنهال على وجهي تصفعني بقوة قائلة بصوت أعلى من المرات السابقة:

- لما أسألك تردي عليا.

تساقطت دموعي رغمًا عني. لم تكن دموعًا؛ بل كانت شلالات من البكاء تنحدر بقوة. خرج كل ما خبأته بداخلي طيلة السنوات الماضية في تلك اللحظة. أخذت تصرخ بأعلى صوتها:

- مش كفاية كان مجيك الدنيا شؤم عليا وعلى إخواتك.. كمان ماشية على حل شعرك.. طالعة لأبوكي طبعًا.. الله يجحمه مطرح ما هو قاعد.

أخذت نيران الثورة تهددني بالاشتعال، حاولت إطفاءها ولكن لم أفلح.

- حرام عليكي.. كفاية بقى.. كفاية.. أنا ذنبي إيه؟! طول السنين دي وانتي بتعامليني معاملة الكلاب على حاجة أنا معملتهاش.. بتحمليني ذنب مرتكبتوش ليه؟! أنا لو بإيدي فعلاً مكنتش اتولدت أصلاً صدقيني.. طول ما أنا بكبر وأنا شايفاكي ومش شايفاكي.. عمرك ما خدتيني في حضنك أو طبطبتي عليا.. ليه؟! أنا عملتلك إيه؟! تعرفي.. أنا كل يوم كان يعدي عليا كنت بحمد ربنا إني مستسلمتش وانتحرت.. كان نفسي أريحكوا مني بس مش هبقى خسرت دنيتي بسببكوا وكمان هخسر أخرتي برضو بسببكوا..

لم أكن أستوعب ما أقول، كل ما أعرفه أنني لا أفكر سوى بإطلاق سراح تلك المشاعر المسجونة في معتقلات بداخلي. وما أن شعرت بخروجها حتى هدأت قليلاً وبدأت في استيعاب ما يحدث. تابعت:

- أنا أسفة يا أمي إني كلمتك كده.. بس أنتي مسبتليش اختيار تاني.. وعلى فكرة أنا قرأت المذكرات اللي إنتي كنتي كتباها وبتلومي بابا إنه حملك ذنب مش ذنبك.. ياريت يا ماما ترجعي تكتبي إنك عدتي نفس المشهد بس مكنتش مجني عليه يا أمي.. كنتي أنتي الجاني وأنا أصلاً مش مجني عليه.. أنا مش طرف أصلاً في القضية.. أنا همشي يا أمي ومش هتشوفيني تاني.. بس صدقيني.. زي ما كنتي ندمانه إنك خلفتيني هتندمي إنك سبتيني أمشي.

وبرغم أني لم أكن أدرك ماذا أقول إلا أني أحسست براحة لم أشعر بها قط من قبل. شعرت بأني أطلقت العنان لكل ما يثور بداخلي. لم أنتبه أني ولأول مرة أرى أمي فيها تبكي أمامي، ولم أنتبه أيضًا أنها لم تلفظ بكلمة واحدة. كانت تسمع ما أقوله دون أن تنطق بكلمة واحدة.

لم يحاول إخوتي اللحاق بي ومنعي من ذلك القرار وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك منذ فترة طويلة. مروا بجانبي صاعدين إلى أعلى لحضور عقد قران إحدى جاراتنا في الطابق الأعلى من البيت. وكأن شيئًا لم يحدث. ثبتت مشاعرهم، ثبتت.

دخلت الغرفة وأخذت ألملم جميع متعلقاتي وهممت بالخروج لأجدها واقفة في مكانها لم تتحرك بعد. تنظر إليَّ في رجاء واضح ولكني انتظرت أن تنطق بكلمة واحدة وكنت لأبقى. أقسم بمن خلقني أني كنت لأبقى. قرأت في عينيها شيئًا لم أقرؤه منذ ولدت. شيئًا كنت أبحث عنه في عيون كل من أقابلهم. إنها ضالتي التي لم أجدها أبدًا. ها قد وجدتها عين المرأة الوحيدة التي انتظرت منها ذلك.

خرجت وأغلقت الباب خلفي لتبقى هي وحدها في البيت ونزلت لأجد حسام يقف أمام عربته ينتظرني. ركبت السيارة دون أن أتفوه بكلمة. كان ينظر إليَّ في قلق شديد وسأل في قلق واضح:

- مالك بتعيطي ليه؟

لم أرد، لم تكن هناك كلمات تستعد لأن تُقال. لم تكن لدي رغبة في الحديث ولكنه أعاد السؤال مرة أخرى بصوت أعلى فرددت بصوت أهلكه البكاء:

- مفيش أتخانقت مع ماما.

لم انتظره يعقب وأردفت:

- هنروح فين ؟

صمت لثوان وأخذ يقود السيارة بشكل جنوني كعادته ثم قال:

- هنروح عندي البيت.

نظرت له بنظرة فهمها خاطئاً ليردف:

- متقلقيش.. والدتي مستنياكي هناك وأنا حاكيلها على كل حاجة وبالصدفة كمان قولتلها إنك متخانقة مع والدتك وإني مينفعش أسيبك لوحدك عشان عارفة إني بحبك.

لم تكن نظراتي اليه نظرات شك أبداً؛ بل كنت أبحث عن الاطمئنان والأمان في عينيه. أثق فيه كما لم أثق في أحد من قبل. كان هو الاستثناء الذي صنع لنفسه قاعدة باسمه.

فور دخولي بيته وجدتها كما قال في انتظاري. تنظر اليَّ بعين حانية أعتقد أني أعرفها تمام المعرفة. إنها ضالتي التي انتظرتها دومًا ولكنها معلنة، واضحة، جلية. لا تخشى أن يراها أحد أو يقابلها بنظرات عطف أبدًا. تنظر

إليّ بتلك العينين الحانيتين وتدرك أن دموعي لم تجف بعيني بعد، تفهم أني أحتاج لشيء ما وتعلم أن لديها الكثير منه. ظللنا ننظر إلى بعضنا هكذا بهذا الشكل الغريب وحسام يقف بيننا لا يفهم شيئًا. فإنها المرة الأولى التي نرى فيها بعضًا ولم نُلقِ حتى السلام بعد. تنظر إليّ بعيني أُم وأنظر لها بعيني طفلة يتيمة وأبواها ما زالا لم تنقطع أنفاسهما بعد.

استجابت لندائي المبهم وفتحت ذراعيها لأجد نفسي لا أعرف كيف كنت أجري كطفلة تنتظر قدوم والدتها لتصطحبها إلى البيت بعد أول يوم لها في المدرسة، احتضنتني وأخذت تمسح على رأسي وتطبطب على ظهري بحنان عارم. لا أعلم متى انفجر ذلك البكاء ثانية. من أي نهر يصب ذلك النبع في عيني. لا أعلم شيئًا سوى أنني قد وجدت موطني أخيرًا، فلقد يئست من الغربة والهجران اللذين لا ينتهيان أبدًا.

لم أدرِ أني ظللت هكذا لدقائق طويلة ولم تكن لتكل هي أو تمل من مسحها على رأسي بيديها لأهدأ، وهدأت. ظلت الدهشة تعلو وجه حسام وإن كان هناك غيره لدهش هو الآخر. ليس هناك سبب منطقي ليفهمه ولكن المنطق نسبي جدًا، فالمنطق هنا ليس له علاقة بالمعرفة المسبقة وإنما هو بالمعرفة الخالدة والدائمة، لم نتعامل سوى بطبيعة لا دخل لنا بها، طبيعة خلق الله بها الأنثى ولا دخل للمنطق في شيء يتعلق بالتدبير الإلهي في شيء.

جلسنا صامتين، ننتظر حدوث شيء لا نعلمه، لا نعرف كيف نتصرف وما هي خطتنا ولكن كان يجب للصمت أن يأخذ فرصته في فرص الهدوء للتفكير الصائب والصحيح. وفي ظل ذلك الصمت المزعج. رن جرس الهاتف الموجود في بيت حسام الذي ظل ينظر إليه في قلق واضح وبعد تردد لم يدم طويلاً رفع سماعة الهاتف ورد.

أخذت ملامح وجهه تتبدل من القلق إلى الفزع الواضح وهو لا ينطق بكلمة، فزع لم أرَ على وجهه مثله من قبل. لم تكن لدي فرصة سوى أنني جريت وخطفت منه السماعة لأسمع ما يقال وليتني ما خرجت من بيتي أبداً.

أصدر الهاتف ومضة صغيرة فعلم أن أحداً ما قد بعث إليه رسالة فترك الأوراق وهو لا يريد ذلك، ينتابه الفضول ليعرف ماذا سيحدث. فتح الهاتف ليجد رسالة من "لمى" مكتوبٌ بها

"يلا يا بيه تعالى عاوزاك ضروري"

أغلق الأوراق على حين رغبة منه؛ ثم وضعها في حقيبته مرة أخرى وانطلق إلى ذلك المكان الذي يعشقه، فكم من الذكريات قد ارتكبت هنا باسم الحب. الجميع يشهد على ذلك، الحوائط والجدران والأبواب الخشبية العتيقة، كل ذلك يشهد على أنه يترك عمراً كاملاً بين ثناياهم. ينتظرون فقط رؤيته ليدلوا بشهادتهم وأقوالهم، وهذا ما حدث.

فما أن خطت قدماه ذلك المكان حتى أخذ ينظر إلى كل ذرة فيه، هنا قد ترك شيئًا، وهنا قد عاش حلمًا، وهنا، وهنا، وهنا قد ترك نفسه.

أخذ يبتسم نفس الابتسامة التي كان يبتسمها حين سمع "هاني عادل" يشدو بما أملاه عليه "محمد إبراهيم" قائلاً:

"سايبة ريحتك بين هدومي.. سايبة قلقك بين همومي.. سايبة أيامك في يومي وذكريات ملهاش نهايه.. سايبة صوتك

بيحاوطني. . سايبة صورتك في المرايه. . سايبة حاجه فى كل حاجه. . "

تنهد تنهيدة طويلة ثم زفر بكل ما أوتي من وجع:

"رغم إنك مش معايا"

تلك الابتسامة المنكسرة قد عادت ثانية تزين ما يشعر به من وجع مميت، ما أصعبها وما أحلاها، ما أعذبها وما أقساها. جلس في نفس المكان الذي كانا يجلسان فيه، طأطأ رأسه خافضًا إياها ووضع يده على وجهه وأخذ يتذكر.

****

الليل هنا لا يمت للنهار بصلة، فأنغام العود تتناثر في الأرجاء والهواء البارد المنعش الذي يسري في الضلوع فيدفئها، وهي تلك الفتاة التي قد كرَّس حياته ليحبها واعتقدَ أن هذا ليس كافيًا. يمسك بيديها ليطمئن، لم يكن يمسكها بل كان يتشبث بها، كغارق قد وجد قاربًا للنجاة فتشبث به بكل ما يملك من عقل وقلب.

- هو أنتي مش هتبطلي تبقي حلوة بقى ولا إيه؟

قالها "أحمد" وهو يبتسم ناظرًا لعينيها الساحرتين لتبتسم هي وتحمر وجنتاها خجلاً وتقول:

- عارف.. أنا بتمنى فعلاً أكون حلوة زي ما أنت شايفني كده.. بحب لمعة عينيك وأنت بتتكلم.. بحب حبك ليا وبحبني عشان أنت بتحبني.

ضحك "أحمد" وقد شعر بنشوة لا يشعر بها سوى معها، ليقول وهو يضحك:

- يا لهوي على الكلام يا جدعان.. إيه ده في إيه.. استني كده استني.

قام وصعد على المكان الذي كانا يجلسان عليه وأخذ يصيح بأعلى صوته:

- بحبــــك.

وضعت يديها على وجهها وهي تضحك غير مصدقة ما يفعل وسط أنظار الجميع، المندهشين والفرحين والحاقدين أيضاً، ولكنه لا يهتم. أخذت تشده من رجله ليجلس ويكف عن جنانه فاستجاب لها وجلس وهو يرى تلك السعادة التي تغمرها فيسعد لسعادتها.

لم يهتم برزانته ووقاره المعتاد، فالحب لا يعترف سوى بالجنون والجنون لا يعترف بشيء غير الجنون.

-على فكره الناس كلها بتبص علينا.

- مش مهم الناس . . ملعون أبو الناس .

ابتسمت أكثر وهي ترفع حاجبيها كما يفعل هو دائمًا :

- أيوة بس أنت دايمًا بتقول إن إحنا مش عايشين لوحدنا .

- ماشي بس ده مش معناه أبدًا إني أعمل حساب ليهم في اللي عاوز أعمله . . في مثل بيقولك كُل اللي يعجبك والبس اللي يعجب الناس . . المثل ده غلط أصلاً . . أنا أعمل اللي أنا عايزه وطز في الناس .

- خلاص خلاص يا عم حقك عليا . . طز في الناس .

ضحكا سويًا وتنهدا معًا تنهيدة يقولان فيها كل شيء؛ فهُما أنصاف لم تخلق إلا لتكتمل ببعضها . قاما من مكانهما وأخذا يتجولان في المكان كما اعتادا وهما يمسكان بيدي بعضهما ليقول هو دون أن ينظر لها :

- نزار على فكره حرامي .

رفعت حاجبيها في دهشة :

- نزار مين؟!

قال وقد بدا أنه يتحدث بجدية :

- أكيد نزار القباني يعني.

- وسرقك إزاي؟ ده ميت من قبل ما أنت تفكر تكتب أصلاً.

قال وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

- عارف.. وممكن أكون مجنون ومتصدقنيش.. بس هو خلى الجن اللي بيطلعلي بالوحي يروحله قبلي وياخد الكلام اللي عاوز اكتبهولك.

- كلام إيه؟

- يارب قلبي لم يعد كافيًا.. لأن من أحبها تعادل الدنيا.. فضع في صدري واحداً غيره.. يكون في مساحة الدنيا.

ابتسمت ابتسامة ملأت الدنيا ورودًا وأزهارًا قصدت طريقها إلى قلبه ليشم عبيرها وينتشي. قالت وهي ترفع حاجبيها متحدية:

- بس أنا مش عاوزة اسمع نزار.. في واحد كدة اسمه أحمد جلال بيكتب حلو جداً تعرفه؟

ابتسم ساخرًا:

- اه الواد ده بيكتب حلو جداً فعلاً. حتى شوفي كان كاتبلك إيه؟

أخرج من جيبه ورقة ثم أعطاها لها لتمد يدها إليها مسرعة لتقرأ:

"أتعلمين..

لقد رآني الله قد حرمت من التصوف والبحث عنك في المعابد والأزقة التي يقرؤون فيها باسمك وباسم الملائكة الأطهار، وباسم من اصطفاهم الله لهدايتنا إلى طريق العشق المستقيم، انتظرتك حتى في أحلامي المتواضعة فلم تأتِ فبدأت أبحث عنك في أحلام الغير علني أجد ريحك.

ليلتها، دعوت الله أن يهديني إليكِ سبيلاً وسأتصدق بمائتي قصيدة، فرأيتك.

أتعلمين أيضًا..

لقد ناجيته حينها رافعًا أكُف التضرع إليه وسألته أن يرزقني إياكِ كشيء منه، ربما قد ناجوته كثيرًا ولكن تلك المرة لا أدري كيف كنت صادقًا لهذا الحد. لا أعلم هل كنتِ إجابة لدعائي، أم أن حورًا عينًا قد سقط منها شيء من السماء فوقعَ منها على الأرض ومن حُسن الحظ أني وجدت ذلك الشيء.

على كلٍ أحمد الله على وجودكِ وأسأله أن يجعله وجودًا حتى ينتهي الوجود"

لم تدرك بأنها تقف في منتصف الطريق، لا تعي شيئًا سوى أنها الآن في رحلة بين سطوره التي تعشقها كما تعشق كاتبها. رفعت

عينيها لتجده يقف بجانبها ينظر لها في صمت تام، صمت يأخذه بعيدًا إلى عالمه الخاص حيث يستقبل وحيه.

إنها وحيه.. إنها هو.

****

"أحمد أنت قاعد هنا بتعمل إيه"

رفع رأسه إلى الأعلى ليجد "لمى" و"علي" يقفان أمامه مذهولان، ينظران له نظرة خائفة من شيء ما، ثم نظرا لبعضهما نفس النظرة الممزوجة بقليل من الخوف وكثير من الرجاء بعدم حدوث ما يدور في خيالهم. لم يرد عليهما وأخذ ينظر إليهما في دهشة ثم قال متعجبًا:

- انتوا إيه اللي جابكم هنا؟!

زادت نظرات القلق والاندهاش على وجهيهما، فالذي يخافان منه يحدث بالفعل.

- يا ابني مش إحنا قولنالك تعالى وأنت قولت ماشي؟!

قالها "علي" وهو يحاول إدراك الموقف واللحاق به ولم يدرك أنه يزيد الأمر سوءً فنظرت له "لمى" معاتبة ثم مدت يدها "لأحمد" وهي تقول في خفة:

- سيبك منه يا عم الواد ده مجنون أساساً . . كويس إننا قابلناك هنا تعالى نروح ناكل حاجة عشان إحنا جعانين جداً.

أخذ ينظر إليها "أحمد" في غضب شديد ولم يمد يده إليها وقال غاضباً:

- في إيه هو أنا مجنون؟! انتوا ليه بتتعاملوا معايا على الأساس ده؟ أنا يمكن بقيت بنسى كتير بس متجننتش يا لمى. . متجننتش يا علي. . متجننتش لسة متقلقوش.

نظرت له "لمى" بنظرة حانية وجلست هي و"علي" بجواره دون أن ينطقا بكلمة، نظرت "لمى" "لعلي" وهى تهز رأسها في إيجاب لتعلمه أنها توافق على الخطة التي أخبرها بها منذ قليل، ليقول علي في حماس شديد:

- بقولكوا إيه سيبوكم من الكلام ده؟! أنا عارف حتة مطعم لسة فاتح جديد بس إيه حاجة محترمه يعني. . وأنا عازمكوا كمان.

ضحكت "لمى" وهي تنظر إلى أحمد قائلة:

- مش قولتلك همه على بطنه مصدقتنيش.

ابتسم "أحمد" لتكون تلك الابتسامة صفارة البدء في تنفيذ خطتهما، تنحى على جانباً وهو يخرج الهاتف من جيبه:

- هكلمهم أنا عشان يحجزولنا ترابيزة واوصيهم على الجمبري اللي أنت بتحبه يا أحمد بيه.

نظرت له "لمى" بنظرة ليفهم منها أنها تعلم بأنه لن يهاتف المطعم بل سيتصل بالدكتورة "علا" ليعلمها أن الخطة ستسير وفقًا لما خططوه مسبقًا. أخبرها بذلك وأغلق الهاتف وعاد إليهما ليجدهما ما زالا يجلسان في مكانهما، فمد يده "لأحمد" ليقوم فقامت "لمى" لتفعل كما يفعل ومدت يدها هي الأخرى "لأحمد" ليبتسم ويقوم معهما ليذهبوا إلى ذلك المطعم أملاً في تغيير واقع كالكابوس المفزع الذي يأملان أن يستيقظ "احمد" منه.

****

أخرج الورقة من جيبه وبدأ يقرأ:

*"الصدف. لا أؤمن بها، فنحن لسنا سوى أحجارٌ تجتمع سوياً لبناء حائط يسمى بالقدر، ونتناوب الأدوار والأماكن لبني ذلك الحائط بطرقٍ متعددة. وتدور الدائرة على الجميع حتى يكتمل بيت كل فرد في تلك المنظومة. لنكتشف في النهاية أن ذلك الصرح العظيم المكون من حوائط مختلفة ومتعددة شاركنا في بنائه مع أناس نعرفهم وأناس لا نعرفهم، وإن ذلك البناء الضخم قد سمى بالعمر.*

*لذلك أنا لا أؤمن بالصدف وأثق تمام الثقة أننا لسنا سوى أدوارٌ في حياة الآخرين، والآخرون ما هُم إلا أدوارًا في حياتنا"*

قالها "أحمد" وهو يغلق الورقة التي كان يقرأ فيها ذلك الكلام ليصفق "علي" و"لمى" تعبيراً عن إعجابهم الشديد لأسلوبه وفلسفته المميزة. فهو كاتب يشتهر بالاختلاف أسلوبًا وفكراً. وهذا ما يريده دومًا؛ أن يكون مختلفًا.

قالت "لمى" بعدما انتهت من التصفيق:

- الله يا أحمد.. بيعجبني دايمًا اختلافك وطريقة تفكيرك.. بتعرف إزاي تقول وجهات نظرك اللي غالبًا بتبقى مكلكعة كده بطريقة توصل لكل العقول تقريبًا.

هز علي رأسه موافقًا لما تقول ثم قاطعها مؤكداً:

- ده حقيقي.. لكن كمان عاوز أضيف حاجة أنا شايفها مميزة في أحمد جداً.

انتبه "أحمد" جيداً وهو يبتسم لتعلق "لمى" قائلة:

- المهم إنك لازم تنط في الحوار وتقول رائيك وخلاص.. قول يا عم إيه اللي أنت عاوز تضيفه.

ضحكا الاثنان على ما قالت تلك الفتاة التي تبعث في الفؤاد والروح ابتسامة حقيقية. ليرد "علي" وهو يهز رأسه ثانية ولكن هذه المرة مستنكراً ولكنه ما زال يضحك:

- أحمد مبيعرفش يتاجر بأوجاعه.. وممكن يكون بيعرف بس مش عاوز.. غير كده كمان بيكتب اللي عاوز الناس تقرأه مش اللي الناس عايزة تقرأه.. يعنى نادراً لما تلاقيه كاتب بوست كئيب مع إنه أصلا برنس الكآبة.. والناس اللي متابعاه كتير يعني ومستعدين يفرحوه بس أعتقد إنه بيعمل كده عشان مبيحبش حد يبصله نظرة عطف أو شفقة.. ممكن.

ابتسم "أحمد" ابتسامة هادئة كعادته ليقول برزانته المعهودة:

- مش أنا لوحدي اللي كده على فكرة.

قالها وهو ينظر "للمى" التي يبدو وأنها فهمت ما يريد قوله لتنظر إلى علي وتقول ساخرة:

- أوبا!!!.. ده باينه قصدك أنت يا علي ولا إيه؟

ابتسم هو الآخر ونظر إلى "أحمد" الذي أردف قائلاً:

- متبصليش كده دي حقيقة على فكرة.. أنت على طول بتضحك وتهزر ومبتحسسش حد إنك متضايق غير مرات قليلة جداً آخرهم كان

الصبح . . بس دايمًا بحس إن في سر أنت مخبيه ورافض حد يعرفه . . حاسس دايمًا إنك بتبقى هتموت وتحكيلي وبترجع في آخر لحظه .

نظر "علي" "للمى" نظرة يحكي بها أسراره وكل ما يدفنه بداخله من مشاعر تجاهها ، نظرة لا يمكن وصفها لعجزها أن تُترجم إلى كلمات ، ولكن إن تم اختصارها في كلمة فسوف تكون "الوجع" .

أشاح بنظره سريعًا كي لا يلاحظ أحمد ذلك ، ثم نظر إلى المنضدة المجاورة لهم فى المطعم وأفتعل الاندهاش وقال فى حماس شديد :

- واد يا أحمد . . دكتورة علا أهي .

لم يبدُ على "أحمد" الدهشة والسرور كما توقعا ؛ فلقد نظر إلى المنضدة المجاورة ثم عاد ينظر إليهم نظرات شك وقلق ، فمن المحتمل أن تكون صدفة حقًا كما يزعم "علي" من اندهاشه بوجودها ولكن هذا احتمال ضعيف . أما الاحتمال الأكبر يدور حول مجموعة هائلة من الشكوك والظنون . وبرغم ذلك التباين الواضح الذي حُسم طبقًا للنسب التي يراها إلى أنها ليست صدفة ، قام من مكانه وذهب إليها في ظل متابعة "علي" و"لمى" ونظراتهم الخائفة كنظرات سارق يسرق ليطعم من هم في كنفه . وقف أمامها مبتسماً بينما هي كانت تنظر في "المنيو" تتظاهر التجاهل أيضًا ليقول هو بهدوئه ورزانته الجذابة :

- أنا حظي حلو جداً إني جيت هنا النهاردة .

رفعت رأسها متعجبة لتنظر له في دون فهم ليكمل وهو يمد يده مصافحًا:

- أحمد جلال.. صحفي وبكتب على أدي كده.

ابتسمت هي الأخرى ومدت يدها مصافحة:

- عارفاك.. قرأتلك كذا حاجة وعجبونى.. أهلاً وسهلاً.

نظر "لعلي" و"لمى" اللذان كانا يتابعنه في فضول شديد وقال وهو ينظر إليهم:

- ودول علي ولمى.. يعنى تقدري تقولي عليهم كده للأسف إخواتي.

قاما ووقف بجانبه ليقول "علي" وهو يمد يده لها مصافحًا:

- أنت هتعرفني على دكتور علا يا ابني.. ما أنا قولتلك إني عملت معاها حوار صحفي من يومين كده وأكيد هي فكرانى مش كده يا دكتور؟

ابتسمت وهى تمد يدها ثانية:

- اه أكيد يا علي فاكراك.

وبينما تقول له ذلك اقتربت "لمى" من علي وضربته كتفًا ليترك يدها ويصطدم "بأحمد" فضحكا الاثنان بينما انحنت وهى تقبلها ضاحكة:

- لمى مجدي . . جاية معاهم كده .

ضحكوا ثلاثتهم على ما قالت ليقول علي مقترحًا :

- إيه رأيكوا يا جماعة نقعد مع دكتور علا بدل ما هي قاعدة لوحدها كده .

قالت "لمى" قبل أن ينطق أحمد الذي كان يبدو من ملامحه الغضب وأنه سيعترض :

- تصدق فكرة كويسة جداً . . لو متمانعيش طبعًا يا دكتور .

هزت علا رأسها نافية :

- لا لا أبداً تنوروا طبعًا .

جلسا وهما يتسمان لها بينما ظل "أحمد" واقفًا ينظر لهما بتلك النظرة التي كان ينظرها لهما قبل أن يذهب لها . نظرت له "علا" متعجبة أنه ما زال واقفًا فابتسم لها وجلس ليقول "علي" بحماس :

- أحمد يا دكتور بيحب الطب النفسي أوى وبيحب يقرأ فيه جداً وعنده معلومات كتير عنه .

رفعت "علا" حاجبيها في دهشة وقالت وهى تنظر "لأحمد" :

- بجد؟! قرأت عن إيه يا أحمد؟

صمت لثوان وهو ينظر "لعلي" و"لمى" نظرة يفهمانها جيداً محاولاً أن ينزع ما في خواطره من شكوك وظنون. لامس بسبابته منتصف نظارته كعادته قبل أن يجمع في ذاكرته سريعًا ما سيقوله في موضوع ما:

- قرأت كتير.. قرأت عن كل حاجة تقريبًا بس استفضت شوية فى الفصام.

- إشمعنا الفصام؟

- مفيش سبب مهم أوى لكن أنا شوفت فيلم اسمه "Beautiful mind" وتأثرت بيه وعجبتني فكرته فحبيت أقرا كتير عن المرض ده مش أكتر.

قاطعه "علي":

- أنا شوفت الفيلم ده.. حلو أوى على فكرة وفى شبه كبير بينه وبين فيلم أسف على الإزعاج.

- بالفعل الأفلام دي أتكلمت عن الفصام.. وأنا أبحاثي كانت عن النوع ده تحديداً اللي هو اسمه العلمي "الفصام البارانوى" اللي هو معروف بالإسكيزوفرنيا يعني.

قالتها "علا" وهى تحدق في عيني "أحمد" وتراقب ردود أفعاله، لتقول "لمى":

- طب إيه أعراض المرض ده يا دكتور وعلاجه إزاي؟

كانت نبرات القلق تخيم على صوتها التي لم يلاحظها سوى "أحمد"، وبدون أن تنظر لها "علا" ظلت تحدق في عيني "أحمد" وقالت:

- الفصام بنطلق عليه في الطب النفسي إنه "بحر الظلمات" وده لان أسبابه وأعراضه وعلاجه متفاوتين.. يعنى ممكن يكون بسبب ضغط نفسي وعصبي كبير جداً وممكن يتنقل بالوراثة.. والأسباب دي وغيرها بتسبب خلل عضوي في المخ وبرغم كل الاكتشافات دي برضه ما زلنا بنطلق عليه بحر الظلمات.

قاطعها "علي" متعجبًا:

- ليه؟!

ابتسمت علا وأردفت:

- لأنه ما زال مبهم بشكل كبير. لكن الثابت دايمًا في معظم الحالات هي الأعراض.. ودي بتكون معظمها هلاوس سمعية أو بصرية.. يعنى مثلاً مريض الفصام ده ممكن يسمع أصوات بتكلمه وتأمره يعمل حاجة وأصوات تانيه تنهيه عن فعل الحاجة دي.. وممكن تلاقى المريض ماشي يكلم نفسه في الشارع بصوت عالي وده بيحصل لمعظمنا عمومًا بس دي بتبقى حالات لحظية.

وبعد صمت منه دام طويلاً قال "أحمد" وهو يعلم إنها تنظر إليه ولم تزيح عينيها عنه:

- تمام.. الأبحاث بقى يا دكتور كانت في إيه بالظبط؟

- أبحاثي كانت عن نوع معين من الفصام ده وهو الفصام البارانوى، اللي هو بنقول عليه "بارانويا".. وده النوع اللي بتحصل للمريض فيه هلاوس بصرية وسمعية ويشوف حاجات مبتحصلش ويسمع حاجات مبتتقالش ويشم ريحة حاجات مش موجودة أصلاً.. أبحاثي بقى كانت في اكتشاف طرق جديدة للعلاج زى الرياضة والفنون الإبداعية والعلاج الحواري وده كان أهم الطرق اللي اكتشفتها.

قاطعها أحمد هذه المرة غاضباً وبلهجة شديدة:

- دكتور هو أنتي بتبصيلي كدة ليه؟! على فكره أنا قولتلهم إني بعد الحادثة بقيت أنسى كتير وده شيء طبيعي.. يعنى لو قالولك إني أتجننت وبيتهيألي حاجات متصدقهمش.. هما بس بيحبوني زيادة وخايفين عليا فافتكروا إني أتجننت.

همّت لتقاطعه "لمى" ولكنه رفع يده معلنًا لها أن تصمت فصمتت ليردف هو:

- أنا بعترف فعلاً إن موت مريم أثر فيا..

تنهد تنهيدة طويلة وتابع بصوت يملؤه الوجع:

- كسرني.. كسر الضلع الوحيد اللي كان سليم بعد ما الضلوع الباقية أتكسرت بعد ما أبويا مات.. عارف إني بقيت غريب ومبقتش زي الأول بس صدقوني.. لو جربتوا تخاووا روحكوا بروح تانية فجسمكوا ميسعهاش فتقسموا أرواحكوا نصين كل واحد ياخد نص وتعيشوا وتأقلموا نفسكوا على كده وفجأة تلاقي نفسك فضيت. عايش بنص روح بس.. الموت قدر أنا عارف وكلنا هنموت يبقى ليه ميبقاش لينا حق إننا نختار؟! مدام كده كده هنموت يبقى نختار حتى نموت إمتى.. طب نعرف قبل ما نموت حتى بشويه فنعمل حسابنا ونسحب أنصاصنا من ضلوع الناس براحة مش على خوانه كده.. أنا مبعترضش طبعًا على قضاء ربنا أكيد هو عنده حكمة في كده.. لكن من حقي أتضايق لما معرفش إيه هي الحكمة دي.

قالها ثم نظر لهم مبتسمًا ابتسامته الهادئة ولكن هذه المرة قد سيطر الحزن على هدوئه فتحولت إلى ابتسامة محارب أطلق رصاصة على جنوده كي لا يغتروا من كثرة الغنيمة ثم قتل نفسه بيديه لأنه لا يحبذ فكرة أن يعيش وحيداً.

قالها وانصرف ليتركهم كمن غُشيت عليهم أبصارهم؛ فوقف الزمان عند لحظة زمنية ولم يتحرك. مشاعر إحباط وقلق تتخلل

صدورهم وتسكنها. لم يذهبوا خلفه ولم يلاحقوه لأنهم يعلمون جيدًا أنه في تلك الحالة ليس هناك ما يؤنسه سوى الوحدة. لا يعلم أين يذهب ولا يدرى لماذا تضيق عليه الأرض هكذا رغم عظم المسافات. هناك بركان ينتظر إشارة الثورة المنتظرة، هناك توابيتَ بداخله تنتظر تعويذة الإحياء، هناك شخص يحيى بداخله بعدما حُكم عليه بالمغادرة الحتمية من دنيته. وجد قدميه تسيران به ناحية ملاذه وملجأه "الكافيه"، وبرغم أنه يشعر بالانسجام هنا مع كل تفاصيل المكان ولكن تلك التفاصيل أحيانًا ما تكون سلاحًا مضاداً. فالتفاصيل وقود خطر لإشعال نيران الذكريات.

المشهد المعتاد، القهوة بجانبه، يخرج الأوراق بحثاً عن شيء يمكنه أن يُخرجه من هذه الحالة التي هي ربما ما تكون أسوأ ما يصاب به ابن آدم على الإطلاق. أخذ يبحث كعادته عن المكان الذي وقف عنده عندما كان يقرأ في المرة الأخيرة حتى وجد ما كان يبحث عنه، وبدون أن يعلم أشعل سيجارتين في آن واحد. صادفت عيناه عيني ذلك الشاب وهو ينظر له في تعجب كعادته، ولكنه لم يهتم وأخذ يقرأ:

لم أنتبه سوى لصوت سماعة الهاتف وهي ترتطم بالأرض فور رمي لها. كنت كالمجنونة حقاً. فقد أسرعت إلى الباب وخرجت دون أن أقول شيئاً. ولكن حسام يعلم لماذا فعلت هذا لأنه سمع ما سمعته فأخذ يلاحقني حتى أمسكني من يدي وأوقفني بالقرب من سيارته التي تركها أمام البيت منذ قليل:

- إهدي يا مريم.. لازم نفكر هنعمل إيه بهدوء.. هما هناك دلوقتي وفي خطر على الكل.

قالها وهو يحاول إيقافي ومنعي من الذهاب إلى هناك ولكن لم يكن لدي اختيار. لابد أن أذهب إلى هناك. فانتفضت فيه غاضبة:

- إهدى إيه هيموتوها لو نخدوش الشريط.. دي أمي يا حسام مينفعش أستنى وأسيبهم كده ممكن يأذوها.. لازم أروح البيت دلوقتي وأديهم الشريط لازم.

قبض على يدي أكثر فاطمأننت دون أن أعرف ما سيقول. شعرت بما يريد قوله وبذلك الأمان الذي يتسرب إليَّ عبر يديه.

- مش هسيبك تروحي لوحدك.. اركبي العربية.

قالها حسام وهو يتجه إلى السيارة حينها، شعرت أن هناك أشياء لابد وأن تقال. ذلك الجُرح الذي كان يسكن ضلوعي قد ضمده ذلك الشاب

الوسيم الذي يقف أمامي الآن، فلقد عالجني دون أن يعلم. أصبحت أملك له بداخلي ما لم أتوقع يومًا أن يكون لأحدٍ أبدًا.

. حسام.. أنا بحبك.

كان يفتح باب السيارة حينها وبدا كأنه لم يستوعب ما قلته جيدًا فوقف مندهشًا تمامًا لما قولته وأخذ ينظر إليَّ في دون فهم، ليترك السيارة ويقف أمامي. تناسيت كل شيء، نسيت أمر كل هؤلاء وكل ما يحدث. أصبحت لا أنقه شيئًا في الحياة سوى ذلك الرجل، أحببته. أحببته بكل ما قوبلت من جفاء في حياتي. أحببته بقلبي الذي لم يعرف الحب مسبقًا.

. إيه؟! قولتي إيه؟

قالها وهو ينظر إليَّ مندهشًا فابتسمت ابتسامة صافية ربما لم ابتسمها في حياتي من قبل:

. بحبك.

نطقت عيناه عشقًا. لم أنسَ نظراته حينها ولم يكن لي أن أنسى أبدًا. ولكن تذكرت سريعًا أننا لابد وأن نغادر الآن. لم يكن يتمالك نفسه وظل يقود السيارة وهو يضحك ولم ينطق بكلمة ولكنني سمعت كل ما يريد قوله. دقائق ووصلنا أمام بيتي فنظرت إلى شقتنا لأجد الأنوار مطفأة على غير العادة. وهناك ضجيج صادر من شقة بالطابق الأعلى من البيت. تلك الشقة

التي كان إخوتي صاعدين إليها عند خروجي من البيت منذ قليل. أسرعت بالنزول لأجد حسام يقبض على يدي قبل أن أنزل وقد تبدلت ضحكاته إلى صرامة واضحة:

- إنتي هتخليكي هنا وأنا هطلع أديهم الشريط وهنزل تاني.. إياكي تتحركي من هنا إنتي فاهمه؟!

لم يعطني فرصة للرد أو الاعتراض ومد يده إليَّ لأعطيه الشريط وأنا أنظر في عينيه التي تقول بأنه لن يسمح لي تلك المرة أن أفعل ما أريد. فاستجبت خاضعة لما أراد. أهذا هو الحب؟! أهذا هو الذي يجعلنا لا نعرف أي طريق نسلك ولا نهتم بأي شيء ما دمنا نسير رفقة من نحب؟ لا أعلم حقاً.

أمسكت بيده بقوة لاستمد منه قوة وأماناً ولم أعرف أنه كان يستمدها هو الآخر. نظر لي نظرة واثقة مطمئنة وصعد إلى الشقة.

نصف ساعة مضت..

لم يحدث شيء، ولم يهدأ قلقي ولم أكن أتمالك أعصابي أبداً. لم ينزل حسام ولم تُشعل حتى أنوار الشقة. نزلت من السيارة وأنا أُقنع نفسي ألا أخالف ما وعدته به ولكنني لابد وأن أعرف ماذا يحدث. ولماذا تأخر كل هذا.

صعدت إلى الشقة وهممت بإخراج مفتاح الباب ولكن الباب كان مفتوحًا بالفعل.

دخلت لأجد الظلام دامسًا وأصوات تأوه أحد ما تأتي من الداخل، أعرف ذلك الصوت جيدًا، إنه صوت أمي. دخلت مسرعة في اتجاه المكان الذي يصدر منه صوتها لأرى أقسى ما رأيته في حياتي. وكأن الحياة لم يكفيها ما عانيته فأتت بكل ما عانى به أهل الأرض ومنحته إليَّ دفعة واحدة. شعرت بأن قلبي يحترق. أمي أمامي ملقاة على الأرض ودمها لم يترك موضعًا في ثيابها إلا أصابه. كالمصلوب أنا، أقف عاجزة، لا أعرف ماذا أفعل. أقف أحاول استيعاب أنني لا أحلم، وأن ما أراه الآن واقع يحدث بالفعل. لم أشعر بنفسي وأنا أسرع ناحيتها ودموعي تسقط بحارًا لا أعرف لماذا لم تُغرق المكان حينها.

أتذكر نظراتها في تلك اللحظة كأنها كانت منذ ثوان قريبة. كانت نظرات شخص يطلب العفو على جريمة يخشى عقابها. قرأت ذلك في عينيها. كانت تنظر إليَّ بحب لم أره في عينيها من قبل. أمسكت يدها وأنا أبكي بشدة، لا أعلم أكان هذا البكاء لأجلها أم لأجلي، أكنت أبكي لأنها قد شعرت أخيرًا بما فعلته بي، أم أبكي لأنها تموت بين ذراعي. فهي أمي، وإذا فعلت أكثر من ذلك فذلك لن يغير من تلك الحقيقة أبدًا. فبكائي

وحرقة قلبي حينها لن يفهمه إلا من فقد أحد أسباب وجوده في هذه الدنيا. أخذت تستجمع أنفاسها وتمسك على يدي كما لم تفعل من قبل:

- مريم.. سامحيني يا بنتي.. أنا ظلمتك وحاسبتك على غلطة أنتي معملتيهاش.. سامحيني يا بنتي.

أخذت أحاول أن أحملها على يدي وأبحث عن نجدة ولكنها كانت تمسك يداي بشدة، وأردفت:

- خلاص.. خلاص يا بنتي مفيش حاجة هتفيد.. عاوزاكي تسامحيني بس.

لم تجد لطلبها رد سوى بكائي الشديد، كنت أبكي بشدة. كان صوت بكائي يكاد يُسمع من على أرض ذلك الكوكب أجمعين، أبكي أملاً في تغيير أمر كان وقوعه محتوماً.

- مقدرش مسامحكيش يا أمي.. أنتي متعرفيش أنا بحبك أد إيه والله.. يلا قومي يا ماما وهنبتدي من جديد.. قومي عشان خاطري.. طب قومي عشان خاطر إخواتي طيب.. قومي بقى يا ماما بالله عليكي.

لم تستجب، ولم أكف عن الطلب. كانت تنظر إليَّ نظرات وداع فعرفت أنه لا فرار من الرحيل. أخذت يدها تتجمد شيئاً فشيئاً وتخف من قبضتها على يدي ثم نظرتْ لأعلى ورحلت. توقف الزمان هنا. شعرت بأنها النهاية إذن. نهاية كل شيء، ستقف الحياة هنا ولن تتحرك أبداً.

أنظر إليها مودعة وأُقبّلها بعيني قبلة الوداع الأخيرة. ولكن أين حسام؟! أين هؤلاء الذين هددوني بقتل أمي إن لم آتي لهم وأعطيهم الشريط؟! ولماذا قتلوها؟! ماذا حدث؟!

وفي ظل تلك التساؤلات سمعت صوتًا يأتي من مكان آخر ولكن في نفس الشقة. صوت أحد يبحث عن نجدة هو الآخر. محبوس في مكان ما ولا يستطيع الخروج. بالكاد استطعت تمييزه. إنه صوت حسام آتيًا من غرفة أخرى فذهبت مسرعة إلى تلك الغرفة لأجده مربوط الأيدي مكمم الفم ينظر لي في أسف وحزن. أسرعت بفكه وعدنا إلى أمي مرة أخرى.

ذُهل مما رأى. لم يكن يعلم بأنهم قد قتلوها. فخلع معطفه ووضعه على وجهها. لم أكف عن البكاء أبدًا، أبكي بكل ما أوتيت من دموع. كان يحاول تهدئتي ولكن لا فائدة. أخذ يتحسس ما في جيبه ليفتح عينه على آخرها وهو يصيح:

- يا ولاد الكلب.. يا ولاد الكلب.

نظرت له وقد فهمت لماذا ينفعل هكذا. فقد خمّنت أنه فور وصوله قاموا بضربه وهو ما كان واضحًا من تلك الكدمات التي تملأ وجهه ثم أخذوا الشريط من جيبه وقيدوه في غرفة أخرى. ولكن لماذا قتلوا أمي؟! ماذا فعلتَ لهم؟! فلقد أتينا لهم مسالمين لنعطيهم ما أرادوا كيلا ينفذوا تهديدهم. لماذا

فعلوا ذلك؟! لماذا حكموا عليَّ باليتم المؤبد بعدما كنت أظن أن فترة اليتم المؤقت ستزول عما قريب.

ظللنا نقف هكذا لا نعرف ماذا نفعل؟! أين إخواتي؟ أيعقل أنهم كل هذا الوقت لم ينتهوا من المباركة في ذلك الحفل المقام بالأعلى؟! لم يكن حسام لينظر إليَّ، يجلس على الأرض ينظر إلى أمي في صمت تام. دنوت منه ومددت يدي إليه بشيء ما إن رآه حتى فتح عينيه على آخرهما غير مصدق.

- كنت عاملة حسابي كويس.. الشريط اللي معاهم فاضي.

قام فزعًا من جلسته وهو غير مصدق ما يرى أو ما يسمع. ألعبت به وأعطيته شريطًا فارغًا ولم أثق فيه؟! أما يحيني على ذكائي وتوقعي الصائب. شعرت أن بداخله تلك المشاعر المتضاربة ولكن صوت الهاتف منعنا من أن نتكلم فجرينا سويًا تجاهه ووضعنا السماعة بيننا لكي نسمع ما يُقال:

- أنتي بتلعبي لعبة أنتي مش أدها.. الشريط يكون عندنا أحسنلك.. المرة دي قتلنا أمك بعد كده الدور عليكي وعلى حبيب القلب واخواتك كمان.. متلعبيش لعبة إنتي مش أدها يا شاطرة وهاتي الشريط بالذوق أحسنلك.

في هذه المرة لم أنتظر ليغلق السماعة في وجهنا فقمت بإغلاقها قبل أن يكمل حديثه لأعلمه أنني قد أعلنت حربًا ولن أعقد هدنة قبل أن أنتصر. ولكني ميزت صوت ذلك الرجل الذي كان يتحدث في الهاتف. إنه صوت ذلك الرجل الذي كان في الفيديو! إنه الرجل الذي استحل قوت يومنا ليتقاسمه مع من هم على شاكلته من الفاسدين والفاسقين.

أخذنا ننظر إلى بعضنا مرة أخرى وننصت إلى أفكارنا المتضاربة بعض الشيء. ماذا سنفعل في هذه الحرب الغير متكافئة. نحن الاثنان وحدنا نقف أمام التيار، وليس أي تيار. إنه تيار لا يكتفي بخلخلة الأشجار بل يقتلعها من جذورها. ولكن ليس لدينا وقت لنفكر. فإخوتي سيصلون في أي وقت وعندها سنخسر الحرب وسنُسجن أيضًا. فَهِم ما أريد قوله دون أن أتكلم فمد يده بالشريط وهو يبتسم ابتسامة ثقة لا أعلم كيف أتى بها في تلك الظروف:

- خدي الشريط ومفاتيح العربية وامشي وأنا هفضل هنا.. أنا كنت غلط لما كنت عاوز أمنعك إنك تكتشفي الحقيقة ولازم أصلح الغلط ده.

كنت أهز رأسي رافضة بشدة ما يريد فعله ولكنه تابع بعصبية بالغة:

. اسمعي اللي بقوله وامشي.. إحنا هنكسب الحرب دي وأنتي اللي هتخرجيني من السجن والناس دي هي اللي هتدخل.. أنا واثق في مريم فلازم تكوني أد الثقة.

انفجرتُ بعد صمتٍ دام طويلاً. كان البكاء يغلب على صوتي وانفعالي كان واضحاً:

. هنمشي سوا يا حسام وهنعمل كل ده سوا.

تابع بصرامة:

. لأ.. لو مشينا أنتي اللي هتلبسي القضية دي لوحدك وهنبقى مطاردين ومش هنعرف نتصرف.. مفيش حد عنده دافع يقتل والدتك غيرك لأنها مكنتش عندها عداءات مع حد.. واخواتك هيقولوا إنك اتخانقتي معاها ومشيتي ومحدش معاه المفتاح غيرك.. امشي يا مريم يلا قبل ما ينزلوا.

قالها وهو يمسك بيدي ويخرجني خارج الشقة لأسمع صوت إخوتي ينزلون من الأعلى فوجدت نفسي أجري هرباً الى خارج البيت واتجه الى السيارة وأقودها ولا أعلم الى أين سأذهب أو ماذا سأفعل.

انتهت الأوراق..

ماذا الآن؟!

انتهى كل شيء.. القهوة، السجائر، والورق أيضًا..

لا يدري ماذا سيفعل كي يساعدها بعدما قرأ كل ما أعطته من أوراق.

أيذهب للشرطة ويعطيها لهم؟

أم يبحث عنها؟

ولكن أين يبحث عنها وهو لا يعرف لها عنوان، بالإضافة أن الرقم الذي اتصلت منه غير معلوم.

ماذا سيفعل إذن؟

وضع يديه على رأسه خافضًا إياها في إرهاق واضح، أخذ يفكر ويفكر في إيجاد مخرج لتلك المتاهات التي تتسارع في حبسه بداخلها.

من يمكنه مساعدته في إيجاد ضالته؟

من يأتي في هذه الأحوال على غير توقع منه؟

إنه "إبراهيم"، ولكنه لم يأتِ في هذه المرة؛ ربما يكون لتوقع أحمد مجيئه.

أم لإفساده قانون "إبراهيم" الذي أخبره به مسبقًا.

"ستأتي الأشياء حتمًا عندما تكف عن انتظارها"

أخذ يدور بعينيه في جميع الأماكن بحثًا عنه ولكن لا فائدة. ذلك الشاب ينظر كعادته في تعجب تام، ولكن لم يكن "لأحمد" طاقة في هذه الحالة أن لا يكترث بأمره وقام غاضبًا يسير في اتجاهه وكأنه سيفرغ فيه كل شحنات الغضب الكامنة بداخله. دنى منه وعلامات وجهه لا تنبئ بخير، وعلى النقيض تمامًا يحتفظ الشاب بهدوئه وابتسامته التي زادت في انفعال أحمد الذي ربما كان سيثور في وجهه ولكن شيئًا ما استوقفه. فقد وقعت عيناه على ذلك الاسم المعلق على صدره.

"أسامة إبراهيم"

وقف "أحمد" لوهلة يحدق في ذلك الاسم في شرود تام، هناك أحداث وأشخاص يمرون بداخله الآن، فكان للعقل أن يقف احترامًا لمكانتهم عند مالكه.

- أقدر أساعدك بحاجة يا أستاذ أحمد؟

زاد الشرود توهانًا، من أين عرفه ذلك الشاب؟! أيمكن لتواجده الدائم هنا؟ يمكن ذلك ولكنه يشعر بأن هذا الموقف لم يكن يحدث لأول مرة.

- هو أنت تعرفني؟

قالها "أحمد" وهو يضع يديه على رأسه كمن يعاني من صداع قد أكل كل ما يملك من وعي فأصبح عرضه لنسمة هواء فتسقطه أرضًا.

- اه طبعًا يا أستاذ أحمد.. هو حضرتك متعرفنيش؟

قالها "أسامة" وعلى وجهه علامات التعجب تحتل جميع ملامحه أيضًا، يبدو وأنه يعرفه جيدًا؛ فكيف يسأله أحمد ذلك السؤال؟

- معلش مش واخد بالى.. بس أنت تعرفني؟

صمت "أسامة" لثوان، ثم قال:

- طبعًا يا أستاذ أحمد.. أنا ابن عم إبراهيم اللي كان شغال هنا.

رفع يده "أحمد" وهو يشير "لأسامة" أن لا يكمل حديثه ليقول هو في تعجب تام:

- استنى استنى.. كان شغال هنا؟ هو ساب الشغل أمبارح؟

زادت فترة صمت "أسامة" تلك المرة، ونظرات التعجب تزداد حتى وصلت ذروتها، ثم قال وكأنه لا يصدق أن "أحمد" يتحدث بجدية:

ـ ساب الشغل أمبارح؟! أستاذ أحمد أنا أول مرة أشوف حضرتك كان ف عزا والدي.

سقطت عليه عباراته كسقوط كأس نبيذ على راهب وهو يتعبد.

ماذا يحدث؟!

أيكون ذلك كابوسًا؟!

لا.. فهو يدرك تمامًا أنه غير نائم. أخذت تدور بذهنه آلاف الاحتمالات القاتلة، فيمكن أن يكون "أسامة" كاذبًا ولكن ما مصلحته في ذلك؟! ويمكن أن يكون صادقًا ولكن كيف وقد كان يجلس بجواره منذ أيام مضت؟ أخذت تدور الأرض بدوران معاكس له بسرعة هائلة وأخذت تلك الصراعات تتعارك في خلايا رأسه حتى أتلفتها تمامًا وألقته على الأرض مغشيًا عليه ليذهب في رحلة إلى عالمه الآخر الذي صنعه بداخله.

اللاشيء..

"هناك نهاية بعد النهاية.. هناك لاشيء لم يذكر بعد"

اللاشيء أولاً..

منذ أشهر مضت . .

السلام عليكم أهل الديار . . أنتم السابقون ونحن اللاحقون . .

قالوها سويًا ثم أمسكا يدا بعضهما ودخلا . .

وقفوا أمام لافتة موضوعة على إحدى المدافن . .

"مقابر عائلة العلواني"

رفعا أيديهما متمتمين بالفاتحة ثم سبقها هو بخطوتين تجاه لافتة موجودة بالداخل مكتوب عليها "الرجال" . .

- سلام عليكم . . أزيك يا حاج عامل إيه . . يا رب تكون كويس .

نظر خلفه وهو يشير إليها مبتسمًا وأردف :

- مريم أهي يا سيدي . . مكنتش عاوز أعرفكوا ببعض غير لما هي تتطلب .

تقدمت حتى سارت بجانبه ورفعت يدها وهي تلقي السلام :

- سلام عليكم . . إزيك يا بابا . . كان نفسي أتعرف عليك من زمان بس كنت مستنية يجي اليوم عشان أقولك إن من بكره هبقى خطيبة أحمد جلال . . أحمد ابنك يا بابا . . ومتقلقش أنا دايمًا هفضل ضهره وسنده وحمايته كأنك موجود بالظبط . . كان نفسي تكون معانا بكره بس أحمد دايمًا بيقولي إنك موجود حوالينا وحاسس بينا

دايمًا . . عشان كده جينا نأكد عليك إنك لو مجتش بكره مفيش حاجة هتتعمل مش كده يا أحمد؟

نظرت له وبدت وكأنها تتكلم بجديه ليبتسم "أحمد" ابتسامة صافية قائلاً:

- اه كده طبعًا . . هو ميقدرش ميجيش أصلاً في يوم زى ده .

صمتا قليلاً ثم رفعا أيديهما يتمتمون ثانية ثم انطلقا يستعدان ليوم غد. ذلك اليوم الذي انتظراه طويلاً وها هو قد أتى أخيراً . .

ولكن . .

ليست الحياة عادلة بالقدر الكافي لتكتب النهايات السعيدة .

**اللاشيء ثانيًا..**

منذ أشهر مضت . .

ظلام حالك يعم أرجاء الغرفة إلا من شعاع بسيط يسقط على نصف وجهه وعلى الورقة التي يمسكها بيديه . أصوات شجار المطر مع نافذة غرفته أشعل البركان الذي لم يهدأ بعد . تناول القلم من جانبه وأمسك الورقة وأخذ ينظر إلى النافذة في شرود تام ثم عاد للورقة ثانية وأخذ يكتب .

"إنه صوت المطر.. أخذ يداعب نوافذ الغرفة.. وأخذت الغرفة تداعبني وتُخرج من جدرانها صوراً ورسومات وأوراقًا كُتب عليها الأشعار.. ومناديل ورقيه تحمل بين ثناياها عطوراً لا تنبغي لأحد سواك.. وأخذت تتحول تدريجيًا حتى أصبحت تُشكلُ الماضي بكل ما فيه..

نعم إنك أمامي الآن.. ربما قد رحلتي ولكنك تركتي عمراً بأكمله لن يتركَني أبداً..

أتذكر منذ أعوام قليلة عندما شممنا تلك الرائحة المفعمة بكل ما هو ساحر في تلك الحياة.. إنها رائحة المطر.. وأتذكر الابتسامة التي تنم على أن الفكرة التي زارتك قد مرت عليَّ قبلها.. وما إن رددت بابتسامة مثلها حتى وجدنا أنفَسنا تحت المطر.. نلعب كأطفال لم يعرفوا شيئًا في حياتهم غير البساطة.. لا أتذكر أكان أحدٌ في الطريق غيرنا أم لا.. لأن عيني لا ترى غيرك مهما زاد الازدحام.. والدفء الذي يملىء الغرفة الآن ما هو إلا نفحةُ من ذلك الحضن الذي قبل فيه ما لم يقل في عمر بأكمله وبرغم أننا لم تنطق ألسنتا بكلمة.. تركنا أرواحنا تتكلم وكلام الروح لا تفهمه عقولنا..

كنت كفراشة تطير بين أزهارها.. ويمثل ذلك الإزار الأسود كجناحين تَحلقين بهما في سماء ذلك الحقل.. كان المطر حينها أشبه باستجابة لدعاء راهب قد مكث طيلة عامين يدعو بالاستسقاء

ولسعادة أقدارنا أننا نسكن في نفس بلدته . . ها قد مات الراهب ورحلتي أنتي أيضًا وما زالت القهوة بها نكهة لا تختلف عن قبلة سرقتها على حين غفلة منك . .

افتقدك يا قهوتي ويا كافييني الخاص . . افتقدك بكل لغات بني البشر . . وسأظل افتقدك ما دام الموت لا يريد أن يأخذني إليك . . »

سقطت دموعه على الورقة فوضع القلم جانبه مرة أخرى . سار بهدوء حتى وقف أمام دولابه ومد يده إلى أعلى ليلتقط صندوقًا فجلس على الأرض وهو يفتح ذلك الصندوق ليجد أوراقًا يحفظها حرفًا حرفًا . كان ذلك الصندوق ملك لأبيه وقد أوصى والدته أن تعطيه له قبل أن يموت .

أخذ يقرأ الأوراق ثانية كأنه لم يقرأها من قبل . .

انتهت الرحلة إذن.
ولكن..
مازال هناك لا شيء لم يذكر بعد..

صوت مزعج صادر من ذلك الجهاز الذي يرسم منحنيات يُعلَم من خلالها أيعلن الاستسلام إذن أم سينتظر قليلاً. أصوات قراءة للقرآن تصنع مزيجًا مع ذلك الصوت، مزيج مرهق شيئًا ما.

كان صوت القرآن صادراً من تلك السيدة التي تجلس بجانبه ممسكة يده وهى تقرأ والبكاء غالب على صوتها. يقف بجوارها "علي" "ولمى" "ومجدي" ينظرون "لأحمد" في قلق وحزن شديد.

أخرجت "لمى" من حقيبتها أوراقًا ومدت يدها بها إلى "مجدي" "وعلي" الذين ظلا يحدقان فيها كثيراً.

- الورق ده كنت بشوف أحمد بيقرا فيه دايمًا.. ده ورق إيه؟

قالها "علي" وهو يمسك بالورق ليأخذه منه "مجدي" في هلع شديد، أخذ يقلب الأوراق وهو يقرأ بسرعة كأنه يعلم تمام العلم ما هو موجود بالداخل. قال وعلى وجهه علامات الدهشة والتعجب:

- انتوا جيبتوا الورق ده منين؟!

نظرت "لمى" إلى "علي" في عدم فهم وقالت متعجبة من الذعر الذي أصاب والدها فجأة:

- الورق ده يا بابا أحمد كان بيقرا فيه على طول.

قاطعها "علي: قائلاً:

- فعلاً . . وكان تقريبًا كان بيقول إن في واحدة اسمها مريم إديتله الورق ده مش فاكر . . أنت تعرف حاجه عن الورق ده؟

شرد "مجدي" لدقائق طويلة ثم قال وهو يجلس على الكرسي:

- طبعًا عارف الورق ده . . وكده فهمت أحمد هنا ليه دلوقتي.

دنىَ منه الاثنان وعلى وجهيهما تساؤلات كثيرة تبحث عن إجابة واضحة وتأمل في أن يتلقفها مجدي ويجيب عليهم؛ ولكن تركهما مجدي في حيرتهما واتجه للباب ليخرج وهو يحمل بيديه الأوراق فهَمّ الاثنان أن يلحقا به فأوقفهما قائلاً:

- خليكوا هنا . . هاجي تاني دلوقتي.

تزامنًا مع خروجه دخلت دكتورة "علا" غير مبتسمة على غير عادتها لتسأل ماذا حدث فيخبراها بما حدث فشردت هي الأخرى تفكر في احتمالات قوية وضعيفة، وظلوا جميعهم ينتظرون قدوم مجدي ظنًا منهم أنه يملك بيديه خيوط جميع ما يحدث.

**بعد ساعة مضت ..**

يدخل مجدي الغرفة وهو يصحب معه امرأة في العقد الخامس من العمر، دخلت وهي تبتسم للجميع ثم وقفت بنظرها عند "أحمد" الذي استيقظ منذ قليل. أخذا يحدقان لبعضهما وسط أنظار الجميع.

أشار "مجدي" لها بالجلوس بالقرب من "أحمد" والجميع لا يفهم شيئًا.

- ألف سلامة عليك يا أحمد.. شبه أستاذ جلال بالظبط الله يرحمه.

لم يرد عليها لكنه نظر "لمجدي" في دون فهم ليعطي "مجدي" الأوراق لتلك المرأة قائلاً:

- مدام مريم هتفهمكوا كل حاجة.

نظر الجميع إليها وقالوا بصوت واحد عدا "أحمد":

- مريم؟؟!!

قالت وهى تمسك الأوراق بيديها وتشير إليها:

- أنا مريم.. صحفية في جريدة مشهورة.. الورق ده بتاعي أنا.

فُتحت أفواه الجميع على أخرها عدا "أحمد" و"مجدي" الذين لم يحركا ساكنًا لتردف:

- الورق ده كان فيه دليل براءة حسام جوزي اللي كان متهم في قتل أمي.. اللي قتلوا أمي كانوا عاوزين الشريط اللي صورته وبيكشف فضيحة قلبت الرأي العام وقتها.

لم يكن أحدٌ ليفهم شيئًا فتابعت:

- الورق ده كان مع الشريط. . كتبته وكلمت أستاذ جلال لأن والدتي كانت شغالة معاه في نفس المكتب هو وأستاذ مجدي.

نظرت "لأحمد" الذي كان ينظر "لمجدي" في نظرات يفهمانها جيداً وأكملت:

- والدك يا أحمد. . هو اللي دافع عننا وكسب القضية ساعتها بس للأسف المتهمين الحقيقين كانوا سافروا بره البلد وقتها.

قاطعها "علي":

- مين المتهمين دول؟

- سكرتيرة وزير كان من أكبر الوزراء ساعتها و رجل الأعمال الشهير شريف الشيمي.

صعقت "علا" لما سمعت ونظرت "لعلي" الذي بات مصدوماً هو الأخر فنظر "لأحمد" يُعلمه أنه فهم الآن لماذا يكره ذلك الرجل كل ذلك الكره. تابعت مريم:

- طبعًا سافروا برة البلد لحد ما العقوبة سقطت ومحدش طبعًا بقى فاكر حاجة ورجعوا تاني لأماكنهم بشكل طبيعي.

ضحكت ساخرة وأردفت:

- بلد غريبة والله.

قاطعتها "علا" وهي تنظر "لأحمد" الذي ظل صامتًا طوال هذه الفترة تتابع ردود أفعاله:

- إديتي الورق والشريط ده لأستاذ جلال إزاي؟

- كلمته وقولتله إني لازم أقابله ضروري.. وحددت السينما علشان يبقى أمان أكتر وطبعًا كنت لابسة نقاب عشان محدش يعرفني.. وأنا على اتصال دائم مع أستاذ مجدي ودايمًا بقرالك يا أحمد وقولت حتى لأستاذ مجدي إن أسلوبك شبه والدك جداً.

خفض "أحمد" رأسه بعدما سمع كل ذلك. أخذ يبكي بشدة لتمسك والدته بيد والأخرى تمسكها "لمى" لتقول وهى تمسح بيدها على رأسه:

- أحمد يا حبيبي مريم ماتت.. وأكيد مش هتكون مبسوطة وأنت بتعمل في نفسك كده.. عارفة إنها ماتت على أيدك بس أنت مكنش في أيدك حاجة تعملها.. ولازم تعرف إن محدش فينا هيعرف يعيش من غيرك ومش هنقدر نشوفك بتتعذب كده قدامنا وإحنا مش قادرين نعملك حاجة.. عشان خاطري يا أحمد لازم تبقى كويس.. عشان خاطري.

دنت "علا" منه قائلة:

- الواضح كده إنك قفلت على نفسك بعد ما مريم الله يرحمها ماتت ودخلت في مرحلة اكتئاب حاد وبالتالي حصلك فصام بارانوي وبقى عندك خلل واضح في تصرفاتك وبتشوف حاجات مبتحصلش وبتنسى كتير.

لم يرفع رأسه بعد لتردف هي:

- هتفضل هنا فترة علاج لحد ما تخف وتبقى كويس إن شاء الله.

قالتها وابتسمت ثم نظرت إلى "علي" و"لمى" وكأنهم يتفقون ثلاثتهم على فعل شيء ما. يتفقون على أن يعيدوا "أحمد" كما كان.

رمزًا للذكاء والثقافة وخفة الظل أيضًا.

لم تنزل عينا "علي" من على "لمى" التي لاحظت ذلك وظلت تنظر له هي الأخرى وهو لا يفهم ما تعني تلك النظرات.

## اللاشيء الأخير..

ما زال هناك ثلاث وريقات وشيء ما . .

ضغط ضغطة مطولة على ذلك الشيء فارتقى صوت الموسيقى حتى عانقت أذنيه المنهكتين من كل ما شهدته من أسباب أدت به إلى ذلك المكان. استسلم لنشوة تلك المنظَومة المنمقة من النغمات الكلاسكية حتى هدأت عيناه فأغلقها وترك الهواء يعبث بصدره العاري لتكتمل اللوحة، لوحة النهاية.

ألقى بذلك الشيء بعيداً ليمسك الوريقات بكلتا يديه، وبدأ يقرأ:

الورقة الأولى . . "هم"

*كُنتمْ عَصا . . وكُنتُ أعمى*

الورقة الثانية . . "هو"

*كُنتَ أنا . . فأصبحتُ أنت*

الورقة الثالثة . . "هي"

*أما بَعد . . فليسَ بَعدُكِ بَعد*

سكتت الموسيقى فعاد صوت السيارات يعلو مرة أخرى وازداد الهواء عنفاً كأنه متعطشُ للمزيد لم يكفه الهاتف .

بعد فترة مجهول وقتها . .

غرفة ٧٣١ فندق هيلتون رمسيس ـ القاهرة

"حينما تظهر الحقائق ينسدل الستار على كل شيء، حياتنا التي اعتقدنا أنها ليست لنا فاستبدلناها بأحلام لم تكن مزودة بخاصية التحقق، وكذلك الطرُق التي سلكناها لنصل إلى تلك الأحلام لم تكن موجودة من الأصل. وقد اتضح لنا في النهاية أننا كنا نقف في منتصف العدم، وأن أمهر ما فعلناه يومًا هو اللاشيء الذي رأيناه كل شيء، وأن ذلك العدم الذي كنا نقف في منتصفه كان من اختيارنا دون أن نعلم"

نظر لهاتفه المغلق وابتسم . .

ما أنقى العزلة . .

طالت النظرة قليلاً تلك المرة ولكنها لم تنتهِ ككل مرة . .

ظل يتابع الهاتف وهو ينازع الجاذبية لكي لا يعانق الأرض ويلاقي حتفه ولكنه لم يفلح. لم يخلو وجهه من تلك النظرة الخائبة ولكنها الآن تمتزج مع قليل من لذات الانتصار. لا يأبه على من انتصر حتى وإن كان هاتفه المسكين ولكنه انتصر. إنه الشر الذي عاش منطويًا تحت ظلمات الطيبة الخائبة.

لم تكن يداه تحظى بالهاتف فقط . .

مال ببطء ولم يغمض عيناه، لم يُرِد أن تفوته تلك اللحظات التي لم يكن يتخيل يومًا أن تكون هي تذكرة خروجه من تلك المرحلة القاسية.

مرت وَهَلَات صغيرات تحمل معها ما أقترفه منذ بعثه، رأى كل شيء.

إنها النهاية إذن..

ها قد وصل أخيراً..

ولكنه يعلم جيداً إنه ما زالت هناك نهاية بعد النهاية..

فابتسم وأغلق عينيه في سلام.

.

.

واستيقظ...

أظُنَّها تمت

عزيزي القارئ: ليست الحياة عادلة بالقدر الكافي لتكتب النهايات السعيدة.. ولذلك لم يكن ينبغي لي أن أكون أفضل من الحياة فأجعلك ترى نهاية تختلف عن واقع تمارسه كل يوم.. ولكني أتمنى أن لا تكون الرواية جزء من حياتك فأنت ما زلت لم ترى الأسود بعد.. ويجب عليك أيضًا أن تثق في أن الأفضل آت يومًا ما وأنك لم ترى الأبيض بعد، ولكن تأكد يا عزيزي وأن يكون لديك قناعة داخلية بأن ثقتك لم تكن في محلها أبدًا.

محمد علي

# اهداء

أ- مصطفى عبدالعال . . السبب الاول في كل حاجة وصلتلها .

أمي . . الضهر والسند .

أ- محمود عبدالعال . . اخويا الكبير اللى بشبهله .

اختي . . بنتي وصاحبتي .

أ- مروة أحمد , أ- شيماء حسن . . امهاتى الصغيرين .

عيلتى الصغيرة الكبيرة . . شكراً ❤

## إهداء

احمد السعدني . . أولاً وأخيراً
هناء مصطفي . . نصي التاني
هبة هشام . . نُصنا التالت
علي سيد . . اخويا الكبير
عُلا مجدي . . شريكة الحلم
عبدالرحمن عبدالرازق . . اخويا الكئيب
نرتيل طارق . . الحاجة الحلوة دايماً
رضوى ومصطفى . . اخواتي الجدعان
حسام جمال . . احسن حد مسك كاميرا
احمد صويرة . . اخويا الفنان
عبدالحميد فتحي . . رفيق العمر
احمد جمال . . اخويا الطيب
محمد زهدي . . اول اللى آمنوا برسالتى
سيد شعبان . . الكوتش الكبير
دايرتي الصغيرة . . ممتن جداً لوجودكم ♥


تشكيل للنشر والتوزيع

# إني سميتها مريم

لا أعلم بماذا أشعر الآن، ولكني أعتقد بأنه الوجع.. ذلك الوجع الذي استوطن بداخلنا فأصبحنا لا نرى سبيلاً للحياة سوى الموت.





